كبريت

(رواية)

تأليف

محمد على محمد حماد

إبهار

الطبعة الاولى

المؤلف / محمد على محمد حماد

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف / مصطفى كرم الفرا

التصميم والإخراج / محمد على حماد

المقاس ١٤x٢٠

رقم الايداع / 14550 /2020

الترقيم الدولي 978-977-90-7595-2

إهداء

الى السيد / رئيس الجمهورية

الى السادة /ابطال و رجالات القوات المسلحة

الى أستاذي الخلوق /العميد محمد نبيل

أهدى هذا العمل

محمد على حماد

تنويه

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأى جهة او شخص نشر الكتاب او جزء منه الا بموافقة المؤلف كتابيا. كذلك لا يحق لأى جهة تحويل العمل الى منتج اذاعة او تليفزيوني او سينمائي دون الرجوع الى المؤلف مع العلم بأنه قد تم معالجة العمل دراميا و جاهز للعرض على شركات الانتاج

المؤلف

محمد على محمد حماد

شكر واجب

اتقدم بخالص الشكر والتقدير

الى الإعلامي المتميز /ابراهيم نصار

و الي الاعلامية المتألقة /منى الشاذلي

الى المبدع /مصطفى كرم الفرا

المؤلف /محمد على حماد

الفصل الأول

(صابرون مثابرون)

حبات الدعاء المتساقطة من بين شفتيها فوق سجادة الصلاة صنعت مع جو السحر البديع لوحة جميلة يعجز أمهر الرسامين عن صياغتها نهضت في تؤدة لملمت أطراف السجادة و ألقت بها في أحد الأركان توجهت بناظريه إلى الجدار المواجه لها احتضنت بعينيها أربعة من البراويز الخشبية ...كل برواز منها حوي بداخله صورة....جميعهم بينهم قاسم مشترك ...جميعهم يرتدون الملابس العسكرية .....حينما وقع بصرها على تلك الصورة التي تحتل أقصى اليمين شعرت بكثير من الحزن و الأسي يجتاحها ...تحجرت الدموع في عينيها وهى تطالع صورة زوجها الشهيد ؛ ملامحه الواثقة الرصينة ما زالت محفورة في وجدانها ...ما زالت كلماته الأخيرة ترن في أذنيها

-"ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون."

تأملت في الصورة الثانية .... إنه ذلك الشاب الوسيم. ضحكته العريضة الصافية ما زالت تقطنها ...تحسست البرواز بيدها في أسي فقد رحل قبل زفافه بأيام من تلك الفاجعة ولكنه لم يعد .... رفعت يدها عن صورة أخيها الشهيد واحتضنت بعينيها صورة ولدها الغائب

-" لا تحزني يا أماه فقد ذهبوا من أجلها."

تأملت صاحب تلك الكلمات الرصينة القادم من الخلف، إنه ذلك القاطن في البرواز الرابع ...

بدا وسيما بشعره الاسود الناعم، شيء ما في ملامحه يأسرك، يجبرك علي حبه و احترامه إنه ولدها الثاني في لباسه العسكري.

نظرت إلى ولدها مستفسرة:

-" من أجل من؟"

تأملها وعلى شفتيه ابتسامة واثقة قائلا:

-" من أجل مصر يا أماه. "

تأملته بكل إعزاز وتقدير قائلة:

-" نعم يا ولدى ذهب من أجل مصر."

قالتها ثم عادت إلى صاحب البرواز الثالث إنه ذلك الشاب الوسيم نجلها الأكبر ذاك الذى ذهب للثأر لكنه لم يعد .... منذ فتره لم تصلهم أي أخبار عنه ...ما زال مكانه شاغرا في فؤادها ....تكاد أن تبدى به لولا أن ربط الله على فؤادها .. تخشي أن تظهر شيئا من اللوعة المستعرة في أعماقها حتى لا تهتز ثقة ولدها الذاهب الي ميدان الكرامة من أجل الثأر ...نظرت إليه في عطف قائلة :

-" انتبه لأخيك جيدا حينما تلقاه."

-"بإذن الله سوف أقابله هذه المرة ...هو بخير بإذن الله."

طبع قبلة حانية ودودة على يدها و أخرى على رأسها وغادرها سريعا قبل أن تخور قواها و قواه ،لم يلحظ تلك الدمعة الساخنة التي سالت على وجنتها وهى تودعه بكل

كيانها ...أغلق باب الشقة خلفه برفق ليطالعه وجه تلك الجارة العجوز والتي تركها وحيدها و ذهب إلى الميدان

-" منصورين يا ولدى بإذن الله."

رد تحيتها فى حنان ثم واصل طريقه مزاحما خيوط الضوء الأولى متوجها الى كتيبته حيث التدريب المتواصل و حيث هؤلاء الأسود الموتورون المتعطشون للثأر .. على امتداد الطريق لم يلحظ سوى هذا الوجوم الذى كسا وجوه الجميع ..في وجدان الجميع سؤال واحد ...متى ؟ هم يرونه بعيدا و هو و رفاقه يرونه قريبا ، شيء ما يشعرهم بقرب الخلاص ....

-"تمام يا افندم."

نطقها فى قوة مؤديا التحية العسكرية أمام قائد الكتيبة إبراهيم عبدالتواب والذى رد التحية قائلا :

-" حمد الله على سلامتك يا حضرة الضابط سعد. "

-" سلمك الله يا افندم. "

-" أتمنى أن تكون قد قضيت أجازه سعيدة.... ترى ما هي أخبار أمنا العزيزة ؟"

-" هى بخير و الحمد لله."

-" هل توصلت إلى مكان أخيك ؟"

أصاب السؤال وترا حزينا في قلب سعد فأجاب بابتسامة مغتصبة قائلا :

-" كلا يا سيدى لم نتوصل إلى أي أخبار عنه. "

بابتسامة هادئة مطمئنة رد إبراهيم :

-" بإذن الله سوف تطمئن عليه قريبا .. و الآن عليك أن تعود الى سريتك لمواصلة التدريب."

-" تمام يا افندم ."

نطقها سعد مؤديا التحية العسكرية ثم استدار مغادرا إلى حيث تقف سريته في أرض التدريب ...بينه وبين نفسه يشعر بالمودة والإعزاز نحو إبراهيم عبدالتواب ذلك القائد الانسان ، و لما لا ؟ و هم يرون فيه الأب و الأخ و القدوة ..إبراهيم عبدالتواب بوجهه الباسم البشوش حفر فى وجدانهم أسمى معانى الحب و الاقتداء .

-"جميع الرجال مستعدون و جاهزون يا افندم ."

في ميدان التدريب نطقها النقيب سمير عبدالعزيز في قوة مؤديا التحية العسكرية أمام المقدم إبراهيم و الذى تأمل رجاله في شيء من الثقة قائلا :

-" أعرف مدى اشتياقكم للثأر و أقدر ما تبذلوه من جهد وما أنتم فيه من مشقة .. أعلم أنكم تؤمنون مثلى تماما أن كل التعب يهون من أجل مصر ....و الآن هل أنتم جاهزون للتدريب ."

-" جاهزون و مستعدون يا افندم. "

تعالت اصوات قادة السرايا و ارتفع زئيرهم وهم يعلنون استعدادهم لبدء التدريب

ألقى القائد نظرة فاحصة سريعة على المعدات و الرجال ثم ألقى نظرة خاطفة على مياه البحر و أمواجه المتلاطمة قائلا :

- "فلنبدأ على بركة الله."

قالها ثم أعطى إشارة البدء للرجال قفز كل منهم إلى دبابته ثم تبعهم هو إلى دبابة القائد و اقتحموا بمركباتهم مياه البحر هي ليست المرة الأولى التي يقومون فيها بمثل هذه التدريبات و لكنهم فعلوها مرات و مرات ..

مجددا و بعد انتهاء التدريب عاد الرجال للاصطفاف علي شاطئ البحر. و كأنها جامعة متكاملة الأركان. مدرسة يتعلم فيها البشر الشوري و الاستنباط و حل المشكلات.

-"بعد التدريب ماذا لدينا من مشكلات أيها الأسود؟"

كلماته القوية المعجونة بالود و الاخاء شحذت همة الرجال فانبري مقلد مجيبا

-"لقد تعرضت بعض الدبابات للغرق بسبب نقص الوقود و كذلك بسبب انخفاض حاجز الامواج و انخفاض فتحات الشكمانات."

-يا لها من مشاكل ...أليس لديك حل يا جابر .....؟

نطقها إبراهيم عبدالتواب مخاطبا ضابط الشئون الفنية بالكتيبة والذى اجاب قائلا :

-"بمشيئة الله هناك حلول...ليس هناك مشكلة بلا حلول يا افندم ..."

-" بإيجاز أريدك أن تشرح لي خطوات الحل."

-" الفكرة بسيطة جدا سوف نرفع فتحات الشكمانات حتى لا تدخلها المياه و كذلك حاجز الأمواج سوف نقوم بتعديله و سوف نقوم بتزويد الدبابات بخزانات إضافية للوقود وسوف ننفذ هذه الفكرة فى الورش البحرية."

-" اكثر ما يعجبني هو ذكائك و حلولك العبقرية السريعة ."

- " هذا نذر يسير مما تعلمناه على يدى سيادتكم يا افندم. "

نطقها جابر ممزوجة بالكثير من الإخلاص و الصدق فهم يعشقون القائد و يؤمنون به كثيرا ... و هو أيضا يثق فى قدرة رجاله وكفاءتهم ...بعد الفاجعة لم يعد يعنيهم سوى الثأر و استرداد الكرامة ....لم تعد همومهم و أحزانهم و مشاكلهم الشخصية تحتل تلك المساحة من حياتهم و تفكيرهم ..كل ما يعنيهم هو كرامة مصر و جرحها الغائر.

*****

هناك في مكتب قائد اللواء ضرب ابراهيم الارض بقدمه مؤديا التحية العسكرية اجلالا و احتراما للقائد فهتف ذاك الاخير

-" هل رجالك جاهزون لتنفيذ المشروع يا سيادة المقدم ؟"

نطقها العميد محمود شعيب متسائلا و مخاطبا ابراهيم، ذاك الواقف أمامه في عزة و إباء ألبسته إياهما العسكرية المصرية ،

-" مستعدون وعلى أتم الجاهزية ... ولكن ....."

تردد ابراهيم و صمت ولم يكمل عبارته فنظر إليه العميد شعيب فى دهشة ممزوجة بالكثير من الاستغراب

- ***" ولكن ماذا يا سيادة المقدم ؟"***
- ***" هناك سؤال حائر فى صدور جميع الرجال ****

نظر إليه القائد لثوان نظرة العارف ببواطن الأمور

-" أظننى أعرف هذا السؤال جيدا ..فلطالما همست به لنفسي ...متى ؟. أليس كذلك يا حضرة المقدم. "

-" نعم يا سيدى هو كذلك. "

ابتسم القائد ابتسامة المطمئن الواثق بنصر الله :

- ***"قل لهم عسي أن يكون قريبا."***

كثير من ثقة القائد و اطمئنانه انتقل الى إبراهيم فبادله الابتسام

- ***" هل هناك أي تعليمات أخرى ؟ "***

رد عليه القائد بمزيد من الثقة :

-" كلا يا حضرة المقدم فقط عليك أن تبدأ في تدريب جنودك على ذاك المشروع جيدا حتى إذا ما حانت لحظة الصفر

استطاع كل منهم أن يؤدى دوره بإتقان ... يمكنك الانصراف الآن."

- "تمام يا افندم."

استدار مؤديا التحية العسكرية لقائدة الذى تابعه باحترام و تقدير.

انصرف إبراهيم و الأفكار و الخواطر تتماوج و تتلاطم في ذهنه كالبحر الهادر ...ما زال وجدانه مشحونا بأطفاله الثلاثة و بزوجته ، تلك الوفية التي تفهم طبيعة عمله و تقدرها جيدا ..ما أحوج أطفاله الصغار إليه و لكن حاجة الوطن إليه أعظم ...بينه و بين نفسه تساءل ترى كم من رجاله يشعر بالشوق و الحنين الى أسرته ...هو يعلم ظروفهم جيدا ،فكم من مرة حدثوه عن أطفالهم و ذويهم ...أخبروه بكل شيء حتى مشاكلهم الشخصية .....عصف به الحنين إلى صغاره الثلاثة خصوصا أنه ترك أوسطهم مريضا ؛لم يشعر بذرة من التقصير نحو صغاره فنداء الواجب وحاجة الوطن أشد و أقوى ، و لكنه ذلك الحنين ....

- "لا تكثر من التفكير و دع الأمر لله يا إبراهيم."

انتزعته هذه العبارة من تلك الدوامة اللامتناهية من الأفكار فنظر إلى قائلها في دهشة

- " عذرا فأنا لم أنتبه لوجودك يا مقلد ."
إنه أمين قائد ثان الكتيبة والذى يحمل نفس رتبة إبراهيم و يشاركه فى قيادة الكتيبة ؛فهو قائد ثان الكتيبة و رفيق إبراهيم المخلص ...كلاهما من أسود

الصاعقة المصرية ...قد تشعر بالرهبة و الخوف والإجلال حينما تنظر فى وجهه ...ولكنك حينما تعامله تلمس فيه رقة الحمام ...ليس هما فقط بل جميع الرجال من عشاق هذا الوطن .... ولما لا فهذه طبيعة المصريين ؛ في وقت المحن يتحولون إلى أسود كاسرة

زفرة اشتياق خرجت من صدر ابراهيم فهتف به أمين قائلا: - "ألهذا الحد تشتاق إلى أولادك ؟"

انحدرت دمعة حارة على وجنة ابراهيم

غمره أمين بنظرات الشفقة و المودة، فلطالما شعر بما يعانيه صديقه

- "تماسك يا صديقي فهذا واجبنا قبل أن يكون قدرنا ...مصر دائما أولا يا صديقي."

تمالك إبراهيم رباطة جأشه قائلا :

-" إنها طبيعة عملنا يا صديقي فحتى لو لم تكن هناك حروب فنحن دائما إلى جوار الوطن فما بالك ونحن الآن في حالة حرب."

هو دائما يدرك قسوة الحروب ؛ فالحروب لا تعرف المشاعر و لا تهتم بالظروف العائلية ولا تعنيها صرخات الأطفال ولا حنين الأمهات والآباء

- "و الآن يا صديقي هيا بنا فلدينا طابور بعده تدريب شاق. "

قالها أمين وهو يصطحب صديقه إبراهيم إلى حيث يصطف رجال الكتيبة ...عجيب هو شأن ذلك القائد إبراهيم ...حينما وصل إلى أرض الطابور تخلى عن كل أفكاره و همومه و ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ، لم يتعجب أمين لحال صديقه فقد اعتاد على هذا ،فصديقه قادر أن يفصل بين همومه ومشاكله الشخصية و بين مهام عمله و واجبه فهو يدرك عظم تلك المسئولية الملقاة على عاتقه .

-*كتيبة صفا ...كتيبة انتباه .. والان دعونا نستمع إلى تعليمات سيادة المقدم إبراهيم "

قالها النقيب جابر شعراوي ضابط نوبتجي الكتيبة لهذا اليوم و الذى سلم زمام الحديث لقائد الكتيبة إبراهيم عبدالتواب . نظرة الواثق الظافر علي وجه ابراهيم حملت إليهم كما من الثقة و الطمأنينة

- ***" أيها الرجال الأشاوس أعلم مدى عشقكم لتراب هذا البلد و أعلم مدى اشتياقكم للعبور و تحرير رمل سيناء الحبيبة ولكن قبل أن يحدث هذا علينا أن نصل إلى مرحلة مرضية من التدريب لأن العرق فى التدريب يوفر الدم فى المعركة"***

لم يظهر على أي منهم أية علامة من علامات التذمر أو السخط رغم كثافة تلك التدريبات و قسوتها ...هذه طبيعة المقاتل المصري المحب لثري وطنه لقيادته

_" و الآن أيها الرجال و بعد انتهاء طابور المساء سوف يحصل كل منكم على عشر دقائق لتغيير ملابس الطابور

وارتداء الزى القتالي كاملا و الاصطفاف حول الدبابات لنبدأ جولة جديدة من التدريب. "

-" تمام يا افندم. "

نطقها شعراوي فى قوة أمام قائده ثم توجه بالحديث إلى بقية رجال الكتيبة

- " كتيبة انصراف. "

ما إن نطقها جابر حتى انصرف جميع رجال الكتيبة لينفذوا أمر قائدهم المحبوب ...

بينه و بين نفسه تساءل خالد إلى متى سنظل نتدرب فقط ألم يحن بعد وقت القتال بعد .. من كثرة التدريبات أصبح يحفظ دوره و مكانه في ملحمة العبور عن ظهر قلب...

إنه خالد ذلك المقاتل العنيد و الذى جاء من أقصى الجنوب ملبيا نداء وطنه الحبيب رغم إنه الابن الوحيد لأمه الأرملة إلا أنه أصر على الالتحاق بجيش بلاده.. إنه مثال للفلاح المصري الصابر

-" هيا أيها الرجال أسرعوا."

نطقها المقدم محسن علام و هو يتابع رجال سريته وهم ينفذون الأمر في سرعة ...ما هي إلا لحظات حتى انتهى جميع الرجال من ارتداء الزى القتالي و الاصطفاف حول الدبابات البرمائية

_"جاهزون للتدريب يا افندم. "

نطقها المقدم أمين في قوة متوجها بها إلى إبراهيم عبدالتواب والذى نظر إلى جنوده قائلا :

-" أيها الرجال أعلم أنكم بذلتم جهدا مضنيا فى التدريب في الأيام الماضية وتحديتم كل الظروف و تفوقتم على أنفسكم ولكن لابد لنا من مزيد من التدريب لنكون جاهزون و مستعدون ليوم الثأر ...واليوم بإذن الله لدينا تدريب في مياه البحر العميقة ..أى رجل يشعر بالخوف. او بالتعب يخبرني بهذا بيني و بينه و سوف أعفيه من التدريب. "

صوت كزئير الأسود انطلق من أفواه جميع المقاتلين في وقت واحد :

-" كلنا جاهزون ومستعدون أن نضحى بأرواحنا فداء لتراب مصر يا افندم. "

كادت الدموع أن تسقط من عيني المقدم إبراهيم وهو يسمع هذا الرد المفعم بالإخلاص و الحماس وندت منه زفرة ارتياح و اطمئنان ثم قال :

-" توكلنا على الله أيها الرجال ...بسم الله فلنبدأ التدريب."

ما إن نطقها حتى أعطى إشارة البدء للجنود فقفز قادة المدرعات كالفهود إلى داخل دباباتهم والتي انطلقت نحو حاملات المدرعات كأنها تشاركهم الحماس و الصمود ، بدأ قادة السرايا فى توجيه الدبابات نحو الحاملات ..كل حاملة دبابات مخصصة لنقل كتيبة ، بدأ قادة السرايا توجيه دباباتهم للنزول إلى الحاملات باستخدام السجائر المشتعلة حيث يجب أن تنزل الدبابة بمؤخرتها اولا ؛ الأمر الذى يشكل

صعوبة وإرهاقا لقادة الدبابات و خصوصا أن هذا الأمر يتم تحت جنح الظلام .... لو أنك نظرت إلى هذا المشهد من السماء لظننت أنك تشاهد مجموعة من المردة أو الجان تسعى لاقتحام هذا البحر الواسع و السيطرة عليه ... وما إن انتهى الرجال من شحن دباباتهم فى حاملات الدبابات حتى بدأت رحلة التدريب الشاقة

_"يا لها من نزهة جميلة. "

نطقها النقيب عصام متوجها بها إلى صديقه و رفيقه حمدي و الذى نظر إليه فى دهشة قائلا :

-" يا لك من مهرج ...نكاد نتجمد من البرد و السماء غائمة و الظلام حالك ونحن فى عرض البحر في أواخر شهر يناير فى قلب الشتاء في الوقت الذى ينعم فيه غيرنا بالدفء تحت الأغطية الوثيرة و في النهاية تصف ما نحن فيه بالنزهة."

بثبات ودون أن تغادر الابتسامة وجه هتف مداعبا :

-" كل المتاعب و المصاعب تهون من أجل حبيبتي ؟"

حدجه حمدي بنظرة غاضبة قائلا :

-" هل ترى أن الوقت ملائم لهذه الرومانسية ؟"

- ***" حبيبتي دائما في قلبى ولا تفارقني. "***
- ***" حبيبتك ؟؟!! عن أية حبيبة تتحدث ؟ أنا على علم بكل تفاصيل حياتك و أثق أنك لم تعش أية قصة حب فعن أية حبيبة تتحدث ؟"***

- " حبيبتي هي مصر أيها ال. ."

رمقه بنظرة إجلال و تقدير

- "حسنا أيها العاشق أظن أنه من الأفضل أن نبقى داخل الدبابة بدلا من البقاء في العراء بجوارها. "

قالها ثم قفز الى داخل الدبابة وتبعه عصام ذلك البشوش الودود والذى لا تفارق الابتسامة وجهه حتى في أصعب الظروف و أحلكها

لحظات الصمت بينهما لم تدم فقد بددها صوت حمدي

- " لماذا سكت أيها العاشق ...ترى هل حننت الى معشوقتك الثانية ؟. "
- " أنا ليس لي سوى معشوقة واحدة هي مصر."
- "ترى ماذا لو وصل هذا الكلام إلى زوجتك ؟ أظن أنها سوف تطبق عليك أقسي العقوبات الزوجية."

-" زوجتي هي حبيبتي وهى جزء منى ومعشوقتي هى مصر وكلنا جزء منها."

نظر إليه حمدي ثم هتف مازحا و مداعبا

- * يا لك من فيلسوف نجيب. "

بأدلة عصام الابتسامة :

- "إنه لشرف عظيم أن تمنحني اسم أبيك."

قالها ثم انخرطا في ضحكة صافية كتمتها و حجبتها جدران الدبابة الفولاذية والتي يبدو أنها قد ارتبطت معهم بهذا الرباط ...و يا له من رباط ذلك الذى ربط بين هؤلاء الرجال

من العجيب أن ترى هذه الروح المعنوية المرتفعة ، رغم قسوة الفاجعة و رغم أكوام المتاعب و الهموم و التي لا يخلوا منها بيت ،و رغم حنينهم لأطفالهم وذويهم ، رغم البرد القارس إلا أن شيئا ما بعث الدفء فى أرواحهم قبل أجسادهم ...ربما كان عشقهم لتراب هذا الوطن ،ربما كان ذلك الرباط المتين والذى لن تراه سوي بين هؤلاء الصابرين المرابطين .

-" أرجوا أن تخفض صوتك حتى لا تزعج سائق دبابتنا العزيز."

قالها حمدي وهو يتأمل حسن ذلك الشاب الصعيدي والذى أسند رأسه إلى جدران الدبابة الفولاذية و أغلق عينيه مستغرقا في لحظات نوم اختطفته من مشقة التدريب و قسوة الطقس البارد

مشفقا تأمله عصام

-" كان الله في عون هؤلاء الرجال. "

-" أشعر أنهم مخلوقات من معدن مختلف عن معادن البشر."

- " لم ينم منذ يومين بسبب ذلك التدريب الشاق المتواصل ."

- "الله أكبر."

نطقها حسن بصوت مرتفع بدد سكون الليل داخل الدبابة ثم انتفض من مكانه.. انتفاضة قوية أصابتهما بشيء من الفزع فنظر إليه حمدى فى دهشة قائلا :

-" ماذا هناك يا حسن. "

انتبه حسن فجأة لوجودهما ثم أغمض عينيه و هو يدعكهما ببطن يده مرددا

-" يا إلهى لقد كان حلما جميلا .."

كثير من الدهشة و التساؤل حملتهما كلمات عصام

-"حلم ؟ لعله خير بإذن الله."

- " قل لنا ماذا رأيت فى منامك أيها البطل."

تهلل وجه حسن و أخذ يقص عليهما رؤياه

-" لقد رأيت فى منامي أننا نعبر القناة و أنا أهلل و أكبر ثم رأيت ذلك اليهودي القذر الذى قتل أخي و أوشكت أن أطلق النار عليه."

ناله شيء من الطمأنينة التي نشرتها عينا حمدى و كلماته

- " بإذن الله سوف يتحقق حلمك "

ابتسم عصام مازحا

- " الحمد لله أنك قد استيقظت قبل أن تطلق النار ...ساعتها كنت ستعبر أنت إلى السجن بينما سنعبر نحن الى الاخرة. "

انطلق ثلاثتهم فى ضحكة قوية لا تتفق أبدا مع طبيعة الموقف ..

****

_" سوف نستريح قليلا و مع أول ضوء للفجر سوف نبدأ عملية الإبرار أيها الوحوش. "

نطقها إبراهيم عبدالتواب و هو يشاهد رجاله الواقفين إلى جوار الدبابات متدثرين بخوذاتهم و شداتهم العسكرية ، فى يد كل منهم سلاحه يقظا منتبها كأنه يشارك صاحبه حالة التأهب واليقظة

- " لو أن معي دفتري و قلمي لكتبت قصيدة فى هذا الجو الشاعري. "

انسابت هذه الكلمات من بين شفتي صبري كاسح فى ثبات لا يتناسب أبدا مع البرد القارس من حوله فنظر إليه حمدى متعجبا متسائلا

- "شاعري ؟ .. أين هي تلك الشاعرية دعك من هذه الشاعرية وابحث لنا عن شيء من التعيين القتالي يسكت عزف أمعائنا فأنا أشعر بالجوع منذ ساعات

نظر إليه صبري مداعبا متقمصا شيئا من شخصية القائد إبراهيم قائلا

-" أنت هنا فى مهمة قتالية عليك الاستعداد لأقسي و أشد الظروف"

- " سوف أدعوك إلى وليمة لن تنساها ؟"

- " وليمة ؟؟ أظنك قد طهوت لنا ورلا صحراويا شهيا."

-" اسخر كما شئت و لكنك حينما ترى وليمتي ستغير رأيك."

قالها ثم قفز الى داخل دبابته وما هي الا لحظات حتى خرج حاملا كيسا من البلاستيك يحوى شيئا ما ناوله لصبري

- ***" لقد أحضرته معي عند عودتي من الإجازة اليوم و نظرا لأنك لم تكن موجودا لحظة عودتي فقد احتفظت لك بنصيبك. "***

تناول صبري قطعة الفطير فى سعادة غامرة قائلا

-"يا إلهى إنه فطير أمنا العزيزة ...لقد افتقدته كثيرا ..."

فى سعادة حقيقية تأمله حمدى، و ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا

كم يسعده أن يرى السعادة على وجوه رفاقه

- ***" هنيئا مريئا أيها الصديق العزيز ....."***

منحه صبرى ابتسامة ودودة مرددا

- ***"يا حبذا لو أكملت جميلك و أتحفتني بكوب من الشاي. الدافئ....صدقني لن أنسي جميلك هذا حتى نهاية الاسبوع ."***
- ***"يا لك من طفس !! "***

فاجأهم ذلك الصوت القادم من الخلف فنظرا نحو مصدر الصوت ليطالعهما ذلك المرح المتفائل إنه النقيب سمير عبدالعزيز

والذى نظر الى صبري مداعبا مرددا ذلك المثل الشعبي

- " من يأكل بمفرده ....."

محتجا صاح حمدى

-" لقد حصلت حصتك من الفطير القتالي و الآن تريد أن تزاحم صبري في حصته من التعيين ...لقد صدق من لقبك ب (الطفس)"

انطلقت ضحكة صافية من صدر صبري ثم اقتسم ما فى يده من طعام دافعا به لسمير تاليا قول الله عز وجل

-"وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا . "

ضحكة قوية هي تلك أطلقها المقدم إبراهيم عبد التواب وهو يشاهد هذه الروح العالية لهؤلاء الرجال

- "سيادة المقدم أنا عندى تظلم. "

نطقها سمير وهو يلتهم قطعة الفطير التي ناوله إياها صبري فضحك إبراهيم قائلا

-" أظن أن سبب تظلمك هو عدم حصولك على مقدار كاف من الفطير القتالي."

هز سمير رأسه موافقا

-" هو كذلك."

تعالت ضحكات صبري مجددا

- " يا لك من طفس."

- " أنا لا أسمح لأحد أن ينادينى بهذا اللقب سوى سيادة المقدم إبراهيم عبدالتواب ."

نظر إليهم إبراهيم عبدالتواب نظرة حب وإجلال صافية

- " حسنا أيها الرجال عليكم أن تستعدوا وحينما تنطلق إشارة البداء عليكم الانطلاق لبداء التدريب ."

تلاشت مظاهر المرح و التهريج من ملامحهم و من أصواتهم فجأة و تعالت صيحاتهم

- " تعليمات سيادتك يا افندم. "

انطلق إبراهيم فى طريقه متفقدا بقية الرجال متسائلا بينه و بين نفسه من أي معدن خلق هؤلاء الرجال ....من أجل وطنهم تركوا ديارهم و ذويهم لم يعبئوا بقسوة الطقس و لم يتعللوا او يتحججوا بأي ظروف ..بل تركوا كل شيء خلف ظهورهم حبا فى أوطانهم.

- " ترى هل تفكر فى رسم لوحة جديدة؟"

تنبه الضابط سعد أنور إلى صوت قائده فانتفض مؤديا التحية فى احترام

- " تمام يا افندم...هذا هو بالفعل ما أفكر فيه."

لحظات من الصمت ألمت بإبراهيم

- ***"ترى لماذا تتأملني يا حضرة القائد يطل من عينيك سؤلا قراءته بوضوح بين حنايا عقلك***
سل ما شئت ولا تتردد."
- ***" هناك سؤال شخصي كنت أود أن أسألك اياه ؟"***
- ***"دعني أخمن هذا السؤال يا حضرة القائد ....لماذا تركت أمك بمفردها بعد استشهاد أبيك و خالك والتحاق أخيك بالكلية الحربية ؟"***
- ***" هذا هو حقا ما أفكر فيه. "***
- ***" ما من بيت فى مصر كلها إلا و فيه مقاتل أو شهيد أو مفقود ...أنت نفسك يا سيدى تركت أطفالك الصغار و زوجتك بمفردهم و لبيت النداء من أجل مصر. مصر دائما فوق الجميع.فى وقت المحن تظهر معادن الرجال . "***

نظر إليه إبراهيم والدموع تكاد تنزل من عينيه مرددا

- ***" نعم يا سعد وقت المحن والشدائد تظهر معادن الرجال .....حسنا أيها البطل استعد فنحن على وشك الانطلاق ."***

قالها إبراهيم ثم انطلق متفقدا بقية الرجال .

قبل بزوغ النهار كانت الكتيبة مصطفة على شاطئ البحر وإلى جوار كل منها طاقمها تتقدمهم جميعا دبابة القيادة والتي وقف بجوارها إبراهيم ملقنا و مذكرا للرجال بما فى جعبته من تعليمات و أوامر

-" حسنا أيها الرجال ،بعد قليل سوف نبدأ تدريب قتالي ميداني جديد سوف نقوم بعملية قتالية فى المياه العميقة

،لذلك يجب عليكم أن تتأكدوا أن جميع خزانات الوقود ممتلئة تماما ...أكرر يجب عليكم أن تتأكدوا من جميع الخزانات ممتلئة بالوقود تماما."

-"تمام يا افندم."

نطقها المقدم أمين فى ثقة فهز إبراهيم رأسه قائلا

-" حسنا لنبدأ تدريبنا القتالي على بركة الله. "

نطقها ثم قفز داخل دبابته فتبعه بقية الرجال وما هي إلا لحظات حتى كانت جميع المركبات تمخر عباب البحر ليبدأ الرجال تدريبات قتالية جديدة .

هؤلاء المتأهبون المتدثرون بخوذاتهم لم يأبهوا لتلك المروحية التي هبطت فى بطء و ما إن سكنت و استقرت على الرمال حتى غادرها ذلك الوسيم يتقدم تلك الكوكبة من الرجال...إنه ذلك الوسيم الباسم سعد الشاذلي *[1]

بخطوات واثقة قوية تقدم الرجل نحو أرض الاصطفاف متأملا أولئك المتعطشين للثأر... بلا كلمة واحدة رفع يده إيذانا ببداء المشروع

مع إشارته بدأ الجميع فى القفز داخل دباباتهم البرمائية الخفيفة و التي انطلقت تشق كبد البحر فى جرأة و جسارة..

بمنظاره الميداني راح الشاذلي يتابع تقدم المشروع و مساره. فى داخله شعر بالاطمئنان لما يفعله الرجال فكل فرد منهم يؤدى دوره بعشق و إتقان ...

تأمل الرجال و هم يناورون و يهاجمون تلك الاهداف التدريبية .....بدا له خروج الدبابات من الماء كوحش أسطوري انتفض ثائرا ليسترد عرينه....معركة حربية مثيرة تابعها الرجل بكل وجدانه.... تمعن الشاذلي فى انتشار القوات و انتشارها

-"افتح التشكيلات و استعد."

---

[1] الفريق **سعد الدين محمد الحسيني الشاذلي**)1 أبريل - 1922 10 فبراير 2011)، رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية فى الفترة ما بين 16 مايو 1971 وحتى 13 ديسمبر 1973 ومؤسس وقائد أول فرقة سلاح مظلات في مصر

ما ان تناهى ذلك الصوت الآمر الى أسماع الرجال عبر أجهزة الاتصال حتى انتشر الرجال و اتخذوا أماكنهم كل خلف سلاحه...

ليبدأوا محاكة رائعة لعملية تستحق ان تدرس في الأكاديميات العسكرية. مناورات و فنون قتالية شاهدها الرجل عبر منظاره أثارت في نفسه نسمات الرضا

بعدها راح كل مقاتل يضغط علي زناد سلاحه فى عشق و اصرار

توالت الطلقات و الدانات من كافة الأسلحة....

يمر الوقت سريعا حينما تمارس عملا تعشقه.....

ما ان انتهى المشروع حتى عاد الرجال مصطفين بجوار مركباتهم و برفقة اسلحتهم..فى انتظار تقييم المشروع .

تأمل الشاذلي فلذات أكباد مصر المرابطين على رمالها ثم هتف مخاطبا:

- ***"بسم الله الرحمن الرحيم اولا أود أن أشكركم جميعا على ما بذلتموه من جهد مضن و شاق فى التدريب فقد ظهرت كفأتكم و تلك المشقة التي بذلتموها فى التدريب واضحة و جلية فى تنفيذ المشروع مع يقيني التام أنكم المسمار الاول في نعش الوجود الإسرائيلي في سيناء ... "***

صمت لحظات متأملا الرجال ثم واصل حديثه

-" من كل النواحي فالمشروع رائع و الاداء ممتاز وان كان لي ملاحظة أود توجيهكم اليها الا وهى الإكثار من الحفر البرميلية و حسن استغلالها فى وقت الحرب..."

ما إن انتهى الشاذلي من حديثه حتى غادر متوجها الى تلك المروحية عائدا من حيث أتي.

*****

-" اتمنى لك أجازه سعيدة يا سيادة المقدم. "

ازدانت هذه الكلمات بابتسامة قائد ثالث الكتيبة سعد الدسوقي الودودة.. تأمله ابراهيم عبدالتواب و قد لمع وجهه بابتسامة مماثلة...تأمل جسده الممشوق بشرته التي لوحتها شمس الصحراء .. تأمل قسمات وجهه القوية و التي تمنحه الكثير من الرهبة و المهابة

-" أشكرك يا صديقي العزيز. أوصيك خيرا بأبنائي فى وقت إجازتي"

تبسم من قوله ضاحكا

-"اطمئن يا سيادة المقدم فهم فى أمان بين يدى الحازم سعد الدسوقي"

غادر ابراهيم مبتسما يحمله الحنين و الشوق لرؤية زوجته و صغاره....مذاق خاص تحمله تلك اللحظات و التي لا يعرفها سوى أرباب الحياة العسكرية...

أصوات أطفاله و ضحكاتهم ظلت ماثلة أمام عينيه طوال الرحلة...فى هذه اللحظة بالذات كان يتمنى لو أن له جناحان.. شيء واحد اختطفه من لجة الذكريات و زحامها ، صخب الباعة و ضجيجهم ....ذلك العتاب الذى حملته نظراتهم... لم يلحظ أي بوادر أو علامات للسخط أو للضجر على الوجوه

بسبب ذلك الارتفاع الجنوني للأسعار، فما يشغل الجميع و يؤرقهم هو استرداد الكرامة و الأرض...ابتهجت اساريره حينما انفتح الباب و طالعت عيناه تلك البريئة منى

- "افتقدتك كثيرا يا أبي"

قبلها ثم عانقها عناقا حميما مفعما بالاشتياق والمودة

- " وانا افتقدتك أكثر يا حبيبتي ."

شيء من الجلبة و الضوضاء كسرا هدوء المكان حينما تناهى صوته إلى مسامع طفليه الآخرين فاندفعا نحوه فى اشتياق وحنين مزاحمين أختهم الكبرى..... شيء من العتاب حملته كلمات الأم

- "امنحوا أبيكم الفرصة ليدخل من باب الشقة و بعدها امنحوه ما شئتم من القبلات ."

لم تفلح حين نطقتها فى إخفاء ما بداخلها من لهفة و فرح لرؤياه بدوره نظر إليها فى إشفاق ممتزجا بكل ما فى الكون من حنين

- "زوجتي الحبيبة سامحيني فليس الأمر بيدي.."

من قلبها هتفت معاتبة

- " علام أسامحك يا حبيبي ؟؟ هل الدفاع عن الأوطان ذنب يستوجب العذر ."

تنحنحت منى محاولة جذب انتباه أبيها

- "حسنا أيها العاشقان هل لكما أن تكتما مشاعر العشق واللوعة حتى ينال الصغار حصتهم من الحنان و الترحاب بأبيهم ."

ضحكة صافية تلك التي خرجت من صدر إبراهيم حينما سمع تلك الكلمات فأحتضنها و قبلها فى حنان

-" حسنا أيتها اللمضة تعالى لتنالي شطرا من حنان أبيك ."

ضمها بين ذراعيه فى حنان ثم دخل بها إلى داخل الشقة وتبعه طفلاه طارق و خالد

تأمل وجهها فى عطف

-" بنيتي الحبيبة اشتقت إليكم كثيرا"

-" ونحن كذلك يا أبى"

غالبته دمعتان ساخنتان سالتا على وجنتيه وحتى لا تتحول لحظة الفرح إلى حزن و بكاء نظر إلي زوجته محاولا تغيير دفة الحديث و مساره

- "كيف حالك مع الصغار يا زوجتي الحبيبة ..؟"

استطاعت بفطرتها و ذكائها أن تقرأ ما فى نفسه جيدا فتمالكت نفسها قائلة

-" لا تخف يا حضرة القائد فخلفك جنود مخلصون .... لا تظن أنك أنت ومن معك من رجال تحاربون وحدكم من أجل مصر ...نحن هنا نربي و نعلم و نصبر من أجل مصر .."

-" أنا واثق من هذا يا زوجتي الحبيبة."

-" و الان يا حضرة القائد عليك أن تغتسل و تغير ملابسك لتحظى بما أعددناه لك من طيب الطعام و لذيذه."

- ***" و هو كذلك يا حضرة النائبة. "***
- ***" نائبة من النوائب أم من الإنابة ؟"***
- ****يا لك من سيئة الظن .أبعد كل هذه المشقة التى. تعانيها مع أولادى أنعتك بهذا النعت....."***

بشيء من المرح و الدعابة هتفت به زوجته

- ***"عليك أن تنفذ الأوامر يا حضرة الضابط."***

اعتدل واقفا بطريقة تمثيلية

- ***"تمام يا أفندم ...إلى الحمام معتادا مارش."***

قالها ثم توجه إلى الحمام وهم يتابعونه وقد تعلقت عيونهم به وما إن انتهى من استحمامه حتى وجد فى انتظاره مائدة عامرة بما لذ وطاب

_" كيف أحوالك فى الدراسة يا منى ؟ "

- ***" بخير و الحمد لله يا أبي .....ولكن ...."***

صمتها المفاجئ و بترها لتلك الجملة أثار براكين من التساؤل و الحيرة فى نفسه

-" و لكن ماذا ؟ هل هناك مشكلة ما ؟"

-" كلا يا أبي ليس هناك مشاكل على الإطلاق ولكن هناك سؤال يتردد فى صدور الجميع ...."

صمتت مجدا فقرأ ذلك السؤال الحائر فى نفوس الجميع

-" متى ؟ أليس هذا هو السؤال يا بنيتي ؟"

-"نعم يا أبي هذا السؤال قرأته فى عيون الجميع "

-" اطمئنى يا صغيرتي فمصر دائما بخير. "

شيء من الثقة و الفخر حملته نظرات زوجته

- " هي كذلك طالما فيها رجال مثلك ."

-" نحن هنا يا سادة."

ضحكة صافية تلك التى تشاركت فيها الأسرة حينما نطق طارق بتلك الجملة الاخيرة

شعور غريب هو ذاك الذى اكتنف مشاعر إبراهيم ، غصة فى حلقه نجح فى طمرها بداخله بمنتهى البراعة والإتقان

-"اثنان و سبعون ساعة فقط يا أبي ، أليس من ال..."

نظرة صارمة حازمة صوبتها الام الى ابنتها

- " منى لا داعى لمثل هذا الحديث و نحن على مائدة الطعام ."

كلماتها الصادقة الملتهبة بالشوق و الحنان مست شغاف قلبه فكادت أن تغالبه الدموع مجددا... هو يشعر بمدى حاجة أولاده

لوجوده و خصوصا فى هذه السن الحرجة ، بذل جهدا خرافيا ليفتعل تلك الابتسامة التى منحها إياهم

- " قريبا يا بنيتي ،بعد النصر سوف تجدوا وقتا كافيا لتشبعوا من حنان أبيكم ."

كم كان أن يتمنى أن تصدقه الأقدار فيما قال ،

بينه و بين نفسه يشعر أنها المرة الأخيرة التى سيراهم فيها

لحظات غريبة من الهدوء هى تلك التي تسود البيوت حينما ينتصر سلطان النوم على من فيه من الصغار.....

تأمل ابراهيم مفردات حجرته فى صمت قطعته زوجته فى حنان:

-"حبيبي ... أرجوا ألا تكون منى قد أرهقتك بحديثها و أسئلتها."

تنهيدة حارة خرجت من صدر إبراهيم وهو ينظر إلى زوجته بمشاعر مختلطة يمتزج فيها الاشتياق بالحزن و القلق ثم ذهب ببصره بعيدا

- "فى كثير من الأحيان أشعر أنها محقه ."

بشيء من الذكاء شعرت بما يدور فى داخله من صراع فوضعت يدها على صدره بشيء من الحنان

-" ليست هي فقط من تشعر بالشوق إليك ..هذا حالنا جميعا."

- " أعلم أنك تحملين فوق طاقتك و...."

وضعت سبابتها فوق شفتيه مقاطعة

- ***" هل نسيت أنى زوجة بطل مقاتل ،تفخر به أجمل الأميرات."***
- ***"يا إلهى ليس لهذا الحد فأنا زوج أسعده الحظ بسيدة وفية مثلك."***

نظرت إليه نظرة ذات مغزى أعقبتها بتنهيدة تحمل كل معان الشوق و الحنين

- ***" هل تظن أنه من اللائق أن نقضى هذه الأوقات فى مجاملات لا تسمن ولا تغنى من جوع أليس هناك مهام زوجية يتعين عليك القيام بها ؟"***

أطلق ضحكة صافية قبل أن يضمها إلى صدره فى حنان بيده الاخرى ضغط على مفتاح الكهرباء ليسود الحجرة ذلك الظلام الحالم منية المحبين و مبتغاهم

*****

-" يا لها من ليلة عصيبة ."

نطقها إبراهيم عبدالتواب فى توتر وهو ينظر إلى مياه البحر الممتدة أمامه إلى مالا نهاية و إلى جواره وقف عبدالرازق قائد ثان سرية الإشارة والذى حاول أن يشارك قائده فى هذا الموقف. بدا القلق واضحا وجليا علي وجه ابراهيم و كلماته

-"لقد تأخر الرجال كثيرا. أخشي ان يكون قد أصابهم مكروه."

-"لقد فقدنا الاتصال تماما."

-" هل تأكدت من سلامة أجهزة الاتصال؟"

-"الاجهزة سليمة. و..."

بتر عبدالرازق عبارته علي مباغت ثم هتف كمن تذكر شيئا

-"لدي اقتراح."

-"افعل اي شيء كي نطمئن علي الرجال."

-" أقترح أن نضع سرية الإشارة على أعلى نقطة و سوف نتمكن من الاتصال بالمركبات المفقودة."

تأمله ابراهيم لثواني و كأنه يراه للمرة الأولى ...تلك الوسامة البادية على وجهه هدؤه اللامتناهي

-"حسنا يا عبدالرازق عليك أن تجرب هذا المقترح."

لحظات هى كل ما استغرقه عبدالرازق فى تنفيذ هذا المقترح

-" تمام يا افندم جاهز لبث الإشارة. "

-" اطلق هذه الاشارة ..على جميع الوحدات التحرك باتجاه القمر ...."

_"على جميع الوحدات التحرك باتجاه القمر. "

ظل عبدالرازق يكررها بينما وقف إبراهيم فى ترقب

فأتاه الرد عبر أجهزة الاتصال

فى شيء من العصبية تساءل ابراهيم:

-" ما الذى حدث؟"

رد عبدالرازق:

-" لقد أبحرت بعض المركبات خارج المياه الإقليمية كما أن هناك بعض المركبات قد علقت نتيجة لنفاذ الوقود ."

رد ابراهيم فى عصبية:

-"فلتذهب المركبات إلى الجحيم ،كل ما يعنيني هو الرجال . سلامة الرجال أهم عندى من كل مركبات الدنيا."

زفرة ارتياح خرجت من صدر عبدالرازق فهبت رياح الأمل على قلب ابراهيم حينما لمح شيئا من الابتسام و الراحة على وجه عبدالرازق

-" هل تلقيت اجابة ؟"

-" نعم يا سيدى ...لحسن الحظ أن القمر فوق خط الساحل و بالتالي سيسهل هذا تحرك المركبات."

-" عليك ان تأمر جميع المركبات بالتحرك في اتجاه القمر."

-"تمام يا أفندم."

نطقها عبد الرازق ثم شرع في تنفيذ أمر القائد:

-"علي جميع القوات التحرك باتجاه القمر... علي جميع القوات التحرك باتجاه القمر. "

تركه ابراهيم ثم انصرف الى مراقبة الساحل فى انتظار عودة الرجال و فى مخيلته تلك الصورة التى اختزنها عقله لصغاره الثلاثة وهم نيام ..ما زالت تلك القبلات الثلاثة التى طبعها على جباههم عالقة فى وجدانه وعقله. ما زالت روحه عالقة بتلك اللحظات الجميلة و التى شاطرهم فيها جل أوقاتهم حتى تغليف دفاتر المدرسة.

كم هي قاسية و مريرة تلك اللحظات التى تلى التغيير و الانتقال، أصعب لحظات الحياة العسكرية هي لحظات العودة من الاجازة.

لم يدر كم مر عليه من الوقت و هو على هذه الحالة إلا أن ظهور أولى الدبابات الوافدة جعله ينحى مشاعره جانبا و يشرع فى الاطمئنان على رجاله الغائبين

_" تمام يا أفندم. "

نطقها محسن فى قوة مؤديا التحية العسكرية أمام قائده عقب خروجه من الدبابة هو و بقية الرجال إلا أن إبراهيم بادره قائلا فى لهفة

-" هل جميع الرجال بخير ..؟"

-" جميع الأفراد بخير يا أفندم ولكن هناك بعض المركبات قد علقت. "

نظر إبراهيم إلى جابر وقبل أن ينطق بكلمة واحدة هتف ذاك الاخير

- "تمام يا افندم سوف نقوم بإخراج المركبات العالقة و سوف يتم إصلاحها لاحقا بإذن الله."

زفرة ارتياح ندت من صدر إبراهيم و هو يتأمل رجاله العائدين من أحشاء البحر

- " الحمد لله أنكم جميعا بخير. "

توالى خروج الدبابات من جوف البحر وتعالى صوت الرجال بين يدي قائدهم والذى بدا كزئير مئات الأسود الغاضبة فى ظلمة الليل البهيم

.....

بعيدا عن مشقة التدريب و تعبه و فى لحظات الراحة اجتمع الرجال فى سرور و سعادة ليقدموا أجمل التهاني لرفيقهم وهدان ذلك العائد من الاجازة عقب زفافه بأيام

-"مبارك لك يا وهدان ..وهذه الهدية البسيطة مقدمة إليك من رفاقك."

نطقها إبراهيم فى سعادة وهو يقدم تلك الهدية ل وهدان والذى تناولها فى سرور و امتنان فارتفعت ضحكات الرضا والسرور من صدور الجميع فنظر إليه المقدم أمين نظرة محملة بكل ما فى الكون من مودة

-" كم كنا نتمنى حضور العرس ولكنك تعلم الظروف و تعيشها معنا. "

و ضع إبراهيم يده على كتف وهدان مهنئا

- "بعد النصر بإذن الله سوف نقيم لك عرسا يشهد به القاصي و الداني ."

بمزيج من المرح والسرور نهض النقيب سمير ليعلن عن بدء فقرات الاحتفال

-" فليأذن لى السيد قائد الكتيبة فقد أعددنا احتفالا بسيطا ابتهاجا بعرس سيد"

- " حسنا فلنبدأ الحفل على بركة الله."

ليس من السهل على أى كاتب مهما بلغت براعته أن يصف هؤلاء الرجال وذلك الرباط الذى جمع بينهم شعور غريب و ممتع لن يشعر به إلا من خدم فى جيش مصر ..

.....

علت الابتسامة وجه ذلك الجالس فى وضع القرفصاء و المنهمك فى صنع الشاي مستخدما اقراص الوقود الحفرى و هو يراقب ذلك القادم

-"الشاي ع النار و الجار للجار."

نطقها عبدالرازق مخاطبا سعد فى مودة فبأدلة سعد الابتسام

-" إنه دوري أيها الحبيب ..أنا من سيعد الشاي هذه المرة ."

تناول عبدالرازق كوب الشاي من يد رفيقه هاتفا:

-"كم هو لذيذ هذا الشاي."

.أمواج من الشرود حملته بعيدا

-" يا له من تناقض!!"

زوبعة من كلمات الاستفهام أثارتها تلك الكلمات فى نفس سعد فتساءل:

- "عن أي تناقض تتحدث ؟"

اجاب مواصلا بنفس الشرود:

-" حينما تسمع تصريحات القيادة السياسية فى الخارج تشعر أننا لن نحارب و..."

قاطعه سعد:

-" و حينما ترى حماس الرجال و عزيمتهم و تلك التدريبات التى نقوم بها تشعر أننا سنحارب غدا.....أشعر أن الفرج قريب."

لا إراديا أكمل عبدالرازق جملة رفيقه

-" لدى نفس الشعور ."

بلا مقدمات و بشيء من الإستلذاذ و المتعة غير عبدالرازق دفة الحديث قائلا

-"يبدو اني قد أدمنت شاي الميدان لدرجة أنى لم أعد أستسيغ أي شأى سواه ."

فى متعة رشف عبدالرازق ما تبقى من الشاي قائلا

-" يا له من رجل ..إنه نعم القدوة، كنت أود أن أسأله فى أمر ما؟"

-" تسأله فى أمر ما؟ لعله خير."

-" انها رؤيا رأيتها بالأمس و أنا صائم."

تأمله سعد مبتسما

-" اذن هي خير بإذن الله ولكن هلا قصصتها على."

أغمض عبدالرازق عينيه لثوان و كأنما يستلهم رؤياه من نقطة سماوية مقدسة

- " رأيت و كأنى أسير فى حديقة غناء أسفلها أنهار جميلة و فيها ظلال و مناظر خلابة."

مبتسما عقب سعد

-" أشم رائحة النصر و العبور فى رؤياك هذه و لكن علينا ان نسرع لنقص رؤياك علي القائد."

-"حسنا. هيا بنا."

قالها عبدالرازق و هو يلحق برفيقه سعد. شعور غريب هو ذلك الذى مس شغاف قلبه حينما عانقت عيناه تلك الدشم و الخنادق من حوله.

******

-"يا له من موقع مبشر بالخير. "

ترددت هذه العبارة فى عقل إبراهيم و هو يتأمل تلك الارض الجديدة حيث صدرت لهم الأوامر بالانتقال إلى هذا المعسكر الجديد.....تأمل تلك الكثبان الرملية و التلال ولاح له في الأفق أمل وليد.... طافت عيناه في أرجاء المكان...لم يكن يعنيه هو و رجاله ذلك الاختلاف البائن بين المعسكرين فهناك حيث البحر و الهواء العليل و هنا حيث الرمال و التلال و

الكثبان ....طافت عيناه فى أرجاء تلك الدشم شيء غريب ذاك الذى حدثته به أرجاء المكان.. جلس إلى فراشه الميداني...أخرج من جيبه تلك المسبحة التي أهدتها إليه أمه و ذلك المصحف الصغير و الذى أهدته إليه زوجته.....تأملهما و قد غلبه الحنين... حينما يغالبه الحنين و الوجد يلجأ إلى كتاب الله' أخذته سنة من النوم ولم يوقظه سوي صوت ذلك الجندي و الذى تنحنح معتذرا

-"عذرا سيدى السيد قائد اللواء يطلبكم على وجه السرعة."

-"حسنا أنا قادم إليه."

هب واقفا، نظر في ساعته ليكتشف أنه لم ينم طويلا.

_"تمام يا افندم."

نطقها إبراهيم فى قوة و ثبات.

فبادله التحية و قد كست وجهه ابتسامة عريضة بددت كل الترقب و الانتظار في نفس إبراهيم

-" أظنك تعلم لما استدعيتك؟"

مستبشرا رد في لهفة

-" هل حانت اللحظة ؟"

-" نعم يا إبراهيم...قادة الألوية على علم منذ بداية الاسبوع ... و لكن عليك كتمان الأمر فساعة الصفر غدا في تمام سعت ١٤٠٠."

-" ماذا قلت؟"

-" قلت لك أن ساعة الصفر غدا في تمام الثانية ظهرا. و عليك أن تجهز الخرائط و المهام القتالية للجنود وليبق الأمر سرا حتى ساعة الصفر."

-" تمام يا افندم. "

نطقها إبراهيم في قوة فأشار إليه قائده بالانصراف...

مشاعر شتى هي تلك التي ماجت في عقل إبراهيم لا إراديا تذكر صغاره الثلاثة و تلك القبلة التي طبعها على جباههم و هم نيام

****

فى ذلك الملجأ الميداني جلس القائد شاردا غارقا فى لجة من الذكريات و الخواطر لم يوقظه سوى قدم سمير و هي تطرق الأرض مؤديا التحية العسكرية

-"تمام يا افندم. هل أرسلتم فى طلبي ؟"

_" نعم فلديك مهمة جديدة وعاجلة يا سمير"

-" دائما في خدمة الوطن. "

لثوان صمت ابراهيم متفرسا فاحصا وجه ذلك الشاب المرح الوسيم

-" لقد صدرت الأوامر الينا بالعبور سعت ١٤٠٠ من ظهر الغد. "

كتمثال من الشمع وقف سمير ساكنا فقد أذهله الخبر

-" ماذا؟ "

-" كما سمعت يا سمير. "

لولا هيبة القائد و احترامه لقفز فرحا كالأطفال الا أنه صمت منتظرا أوامر القائد و الذي تناول مائدة ميدانية فردها أمام سمير فوق المائدة مصباحا ميدانيا ثم تناول بعضا من أوراق رسم الخرائط و الأقلام وضعها علي المائدة أمام سمير.

-" أريدك أن تقوم بعمل قرار القائد و وضع القوات على الخريطة ."

-" تمام يا افندم. " .

-" معذرة سمير سوف اضطر إلى احتجازك هنا نظرا لسرية تلك المهمة."

نطقها إبراهيم ثم خرج من تلك الدشمة و أغلق الباب خلفه بإحكام.

****

-"يا لها من ليلة رمضانية جميلة."

ترددت هذه العبارة في عقل إبراهيم و هو يتأمل الدشم و الخنادق و الملاجئ..

.حملت إليه الرياح من الغرب شيئا من روائح رمضان ....تسللت إلى قلبه حلقات الذكر في الحسين تلك التواشيح الرمضانية، شعر بغصة في حلقه حينما تذكر أطفاله الصغار. قفزت إلى ذهنه صورتهم و هم يستقبلونه عند باب الشقة.....ذكريات كثيرة تماوجت فى نفسه..شيء ما دفعه للنظر إلى السماء...إنها ليلة العاشر من رمضان.. كم هي صافية تلك الليلة. حينما وقعت عيناه على السماء أطلق زفرة ارتياح و استمر فى تجواله بالكتيبة للاطمئنان على رجاله المرابطين ... تناهى إلي سمعه صوت المسحراتى وهو يجوب شوارع القاهرة القديمة، المقاهى،خان الخليلي، ذكريات أخرى كثيرة طافت بذهنه و تراءت له .... ذكريات و خواطر حملتها إليه الرياح القادمة من الغرب

-"أما آن لك أن تتناول طعام السحور...لقد أوشك مدفع الإمساك أن ينطلق"

أخرجته كلمات مقلد من ذكرياته و تأملاته

فملأ صدره بالهواء ثم أطلق تنهيدة ارتياح

- "أحاول أن أملأ عيني من المكان علنا لا نعود إليه مرة اخرى."

- " هل تشعر بالرهبة؟ "

- " مشاعر شتى مغلفة بالشوق تلك التي تراودني هذه الليلة."

-" شوق؟ إلى ماذا؟"

-" الشوق إلى رمال سيناء، الشوق أن نغسل ذلك العار الشوق أن نثأر لشهدائنا و كرامتنا. علنا نعبر ولا نتلقى مرة اخرى."

-" لهذا السبب ترغب في تناول السحور مع جميع الضباط. "

بشيء من الشرود رد ابراهيم

-" من يدرى هل سنلتقى مرة اخرى أم لا؟"

كادت الدموع ان تغالب أمين فأردف

- " إن لم نلتق في الدنيا مرة أخرى فمن المؤكد أننا سنلتقى فى الجنة. "

التقيا فى عناق دام لحظات ثم انصرفا لتناول السحور فى رفقة الرجال...

هناك بين يدى الرجال و على مائدة السحور الميداني تأمل إبراهيم في وجوه الرجال....شيء ما جعله يتذكر السيد المسيح و ذلك العشاء الأخير

بشيء من مرحه المعهود هتف عصام هلال:

-" يا له من سحور شهى أليس كذلك يا عبدالرازق."

- "بلى هو كذلك يا حضرة النقيب أظن أن لذة هذا الطعام تكمن فى هذا الجمع من الرجال."

نظر إليه عبدالرازق وبحروف تقطر شوقا و حنينا تابع

- "كم أتمنى أن نتناول سحورنا القادم فى سيناء ."

أيده جابر

-"كلنا نأمل هذا و نتمناه."

-" مالي أراك صامتا تتأمل في وجوه الرجال و كأنك تراهم لأول مرة يا حضرة القائد."

نطقها محسن مخاطبا عبدالتواب

-" لا عليك يا محسن فقط كنت أفكر فى مشروع الغد.."

بعد انتهاء السحور بدأ الرجال في الانصراف كل إلى مهمته.

****

-" هل تناولت سحورك يا سمير.؟ "

نطقها القائد مطمئنا علي رفيقه و الذي و الذي ابتسم قائلا :

-" كنت أتوقع ان تسألني عن الخرائط و المهام أولا."

بادله القائد الابتسام :

" أنا أثق في كفاءتكم و قدرتكم."

مد سمير الخرائط و المهام الي قائده قائلا :

-"لم أحفل بطعام أو شراب فكل شغلي و همي كان هو تلك المهمة النبيلة. بعدها تناولت طعام السحور علي شعورك الطيب يا افندم. "

ركز القائد ببصره علي عيني سمير ثم وضع يده علي كتفه

-"هذا هو عهدي بك يا سمير. "

- " هل تأمرني بمهمة أخرى يا حضرة القائد ؟"

-"شكرا يا سمير."

- "و الان هل يمكن لي أن أحصل على قسط من الراحة؟ "

-" ستحصل على قسط من الراحة و لكن ليس في فراشك الميداني..."

- " ليس في فراشي؟ أين اذن يا ترى؟"

اتسعت ابتسامة ابراهيم قائلا:

- " حفاظا على سرية المهمة فأنا مضطر لاحتجازك في مكتبي حتى الصباح"

بمزيج من الدهشة و الذهول هتف سمير:

- " تمام يا افندم. "

الفصل الثاني.

(العبور)

من وقع المفاجأة لم يتمكن ابراهيم من النوم استقبل شمس السادس من أكتوبر في لهفة و ترقب. لحظات و يتحقق الحلم...ترى ما الذى تحمله اللحظات القادمة...الاف الاسئلة طرقت عقله بلا هوادة...ترى ماذا لو...؟

أقلع عن الابحار مع تساؤلاته و أفكاره حين لمح محسن علام ، ذلك الشاب الوسيم و الذى استهل عامه الخامس و العشرين مع حلول السادس من اكتوبر

أدى محسن علام التحية العسكرية فى أدب و اجلال فهتف به قائده

-"علام.. هل الجنود صائمون ؟ "

هب علام مجيبا مجيبا فى قوة

- ***"نعم يا افندم .***

-" مرهم بالإفطار فلدينا عمليات اليوم وقت تمام الاستعداد سعت ١٢٠٠"

- " تمام يا افندم"

استدار حينما أشار اليه ابراهيم بالانصراف ،بينه و بين نفسه يشعر علام بإحساس غريب هذا اليوم ...شيء ما بداخله أنبئه أن حادثا جللا سيقع هذا اليوم ...بخطوات خفيفة سريعة توجه إلى أفراد سريته

-" على الجميع أن يفطر فلدينا مشروع استراتيجي هذا اليوم وقت تمام الاستعداد سعت ١٢٠٠ ...هذه أوامر السيد قائد الكتيبة ابراهيم عبدالتواب."

لم يظهر على الجنود أي تذمر أو ضيق فهم يعشقون القائد و يثقون فى دينه و خلقه ..راحة غريبة غمرت الجنود وهم يكسرون إفطارهم ...أصر البعض على مواصلة الصوم و عدم الإفطار ...بعد هذا التصريح تحول المكان إلى خلية نحل ...فى كل مكان ترى الجنود يهرولون ، الاستعداد على قدم و ساق

-"تمام يا افندم . ..جميع الافراد والمعدات على أهبة الاستعداد يا أفندم."
تأمل ابراهيم محدثه بعينين مليئتان بالإصرار و العزيمة ثم ارتد بصره صوب الرجال المرابطين المتأهبين
- "سوف ننطلق الآن إلى جنوب البحيرات المرة وسوف نقوم بالعبور و منها ننطلق للسيطرة على ممرى متلا والجدى وكذلك للسيطرة على المضايق لإعاقة و عرقلة قوات العدو حتى تتمكن قواتنا من العبور و إقامة الجسور...."

يا لها من لحظة مهيبة ومفاجأة لطالما انتظرها الرجال. شيء من الرهبة فرض نفسه على الموقف

تلك الرهبة بددها إبراهيم بكلماته الرصينة

-" من هنا سوف ننطلق الى البحيرات المرة و منها سوف نعبر الى قلب سيناء...المهام و الخرائط تم توزيعها على الجميع....و الان على بركة الله نبدأ."

ما إن نطقها حتى انطلق الركب فى مهابة.....

مشاعر شتى هي تلك التى سيطرت على قلوب الرجال فى تلك الرحلة ....مزيج من الخوف و الحماس و الرغبة فى الثأر

-" ها قد وصلنا أيها الابطال. "

نطقها إبراهيم وهو ينظر إلى رجاله الذين اصطفوا فى حماس عند شاطئ البحيرات المرة....

-"نحن فى انتظار أوامر قيادة الجيش الثالث الميداني."

ما ان نطقها حتى لاحت فى الأفق سيارة جيب تابعة للجيش

و مع مثولها فى حضرة الرجال نزل منها ضابط حديث السن ضئيل الجسم أدى التحية باحترام أمام القائد إبراهيم ثم قدم إليه خطابا

- "أنا الملازم نور قائد فصيلة الدفاع الجوي تم توجيهنا أنا و سريتي من قبل قيادة الجيش للالتحاق بكتيبتكم."

تأملهم رجال الكتيبة فى احترام و قبل أن ينطق أحدهم بكلمة لاحت لهم فى الأفق أسراب الطائرات المصرية فى طريقها نحو الشرق فانطلق الرجال بالتهليل و التكبير

-" الله اكبر...الله اكبر. "

يا لها من لحظة لن يستطيع أن يصفها إلا من عاشها...

ما إن زحفت الطائرات نحو الشرق حتى أطلق إبراهيم إشارة البدء للجنود فقفزوا إلى مركباتهم فى حماس. اندفعت المركبات داخل الماء فى قوة نحو الشرق

-"يا لها من نزهة جميلة."

مطلا برأسه خارج برج الدبابة ألقى سمير ذلك البيان مخاطبا رفيقه سعد

-" هل تعلم أن ما نفعله الآن مخالف للتعليمات."

-"يا إلهى لقد كانت التدريبات التى خضناها أصعب كثيرا من عملية العبور. لدرجة أنى أشعر أننا فى نزهة."

تأمل الرجال شاطئ القناة الشرقي..و هو يقترب فى شوق و لهفة... شاطئ القناة المقترب بدا لهم و كأنه بوابة الفردوس....انها تلك اللحظات التى لطالما تمناها الرجال

بضع دقائق هى فقط ما استغرقته الكتيبة فى العبور بعدها وجد الرجال أنفسهم أمام رمال سيناء...ليس من الممكن لإنسان أن يتخيل كم الشوق بين ضلوع الرجال لهذه الرمال... خرج الرجال من مركباتهم بكل ما يعتمل فى نفوسهم من حنين و اشتياق...بعضهم سجد لله ثم قبل الرمال ...مسيحيون و مسلمون لم يأبهوا لتلك المخاطر المحدقة بهم، فهم أول كتيبة وطئت أقدامها سيناء...هدف سهل مكشوف فى العراء أمام العدو الغادر و مع ذلك فقد انطلقت مركباتهم كالأسود الثائرة تندفع فى عمق سيناء نحو هدفها المنشود ...لم تكن تعنيهم حياتهم و أرواحهم فقد وهبوها لمصر....

بكل المقاييس و الحسابات هي مجازفة و مخاطرة أن تندفع قوات بمفردها فى عمق صحراء لا تعرف عنها الكثير...فقط هو اليقين بالله و عشقهم لهذه الأرض والذى بلغ حد الوله.... قرابة الخمس و عشرين كيلو مترا هي تلك المسافة التى اجتازتها الكتيبة فى عمق سيناء لتصطدم بقوات العدو

-" ها قد بدأ العرس."

نطقها عصام هلال و هو يشير إلى طائرتين ميراج صم صوتهما الآذان تزامنا مع قذائف المدفعية الشرسة

-" على جميع القوات فتح التشكيلات و اتخاذ المواقع الدفاعية و التحصن جيدا."

تردد هذا الصوت عبر أجهزة الاتصال.

قفز الرجال من مركباتهم كالفهود ثم

اشرأبت أعناقهم و تعلقت أعينهم بالطائرتين على إثر هذا النداء

-"يا له من حفل استقبال."

نطقها إبراهيم العجمي متوجها بها إلى ذلك الجندي المرابط معه فى نفس الحفرة و الذى استدار برأسه متابعا مسير الطائرتين

-" و الله لو أرسلوا علينا طيرا أبابيل ما تنازلنا عن حبة رمال واحدة...هيهات أن يحدث ما حدث.. والله إنى أتوق للشهادة. "

لم يكد ينطقها حتى انطلقت دانة من أحد المدافع استقرت إحدى شظاياها فى جانبه الايمن

ابتسامة واسعة ارتسمت على وجهه ثم سقط جثة هامدة...

بمزيج من الحزن والذهول تأمله رفيقه ثم مد يده ليغلق عينيه المفتوحتين تاليا قول الله عز وجل :

-"من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلا "

-"على جميع القوات الاستعداد للقتال فهناك سرية دبابات قادمة من ممر الجدى."

صوت المقدم إبراهيم القادم عبر اجهزة الاتصال رفع حالة التأهب و الاستنفار لدى الرجال

بنظرات ملؤها الذهول و الدهشة تأمل قائد القوات الاسرائيلية أولئك المهاجمون بحثا عن الشهادة

-" أي مدى من الجرأة و الوقاحة قد بلغتم أيها المصريون. "

-" هذه ليست جرأة بل جنون يا سيدى فقد أتوا بأقدامهم إلى عقر دارنا و هذا فى حد ذاته انتحار."

نطقها مساعده فى شيء من الثقة و رتله يقترب فى جنون

-"أظن أننا لن ننتظر حتى يهاجمونا فى عقر دارنا."

نطقها قائد القوات الإسرائيلية فى لهجة غاضبة فتناول مساعده جهاز الاتصال الموجود فى دبابته الحديثة آمرا فى حزم

-" على جميع القوات التحرك لصد هجوم هؤلاء البؤساء المنتحرين."

بينه و بين نفسه يثق فقط فيما لديه من معدات حديثه

..... لو استطاعت الاقمار الصناعية أن تنقل لنا هذا المشهد من السماء للمسنا فيه شيئا من جهاد النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة؛ ففي الجانب الغربي فئة قليلة العدد والعتاد وفى قرص الشمس ذئب ماكر مدجج بأحدث الأسلحة و العتاد.....

-"قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين."

حملت أجهزة الاتصال هذه الآيات بصوت إبراهيم ممزوجة بالثبات و اليقين فنزلت على أرواح جنوده بردا و سلاما

-" الآن أيها الاشاوس... على جميع القوات فتح التشكيلات و الاستعداد للقتال"

على إثرها انتشر رجال الكتيبة واتخذوا وضع الاستعداد للقتال

..خلف التباب و خلف الحشائش اتخذ أفراد المشاة أماكنهم. يحمل كل منهم شدته و سلاحه الشخصي و تسليحه القتالي المتخصص بينما بقى طواقم الدبابات فى أماكنهم استعدادا لتلك المعركة الغير متكافئة بالمرة

-"يبدوا أنك قد أصابك الجنون."

انطلقت تلك الكلمات من بين شفتي حمدى نجيب و هو يسمع تلك الضحكة التى أطلقها صديقه عصام هلال، ذاك الذى نظر إليه فى ثقه

-" يوما ما ستعرف السر يا صديقي"

-"دبابتنا خفيفة جدا مقارنة بدبابات العدو و تسليحنا أضعف من تسليح العدو ومع ذلك أراك سعيدا تضحك كأنك تلهو فى حديقة عامة."

ضحكة أخرى أطلقها عصام و هو يندفع بدبابته الخفيفة نحو تلك الدبابة الإسرائيلية الضخمة الحديثة

-"ماذا تفعل أيها المجنون. "

مرتاعا أطلقها حمدى و هو يشاهد رفيق عمره يتحدى الموت فى و ضح النهار

مشهد مذهل أن ترى دبابة خفيفة قديمة الصنع تهاجم دبابة متطورة حديثة الصنع...فقط على بعد خمسين مترا توقف عصام و أصدر أمرا للرامي أن يطلق قذيفته نحو الدبابة الإسرائيلية

-" الله أكبر.... و ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"

نطقها إبراهيم فى حماس و هو يشاهد ما فعله النقيب عصام هلال.... لحظتها فقط تذكر نبي الله داوود وما فعله بجالوت ... لا وجه للمقارنة بين نبي و بشر عادى إلا أنه تذكر ذلك المقلاع الذى صوبه نبي الله داوود نحو الطاغية و هو يشاهد تلك الإصابة الفادحة التى أصابت تلك الدبابة الحديثة و هروب طاقمها أمام عزيمة الأسود....

-"الله أكبر... لقد فعلتها يا رجل"

نطقها حمدى وهو يتقافز من السعادة داخل الدبابة وهو يشاهد فرار اليهود

-"الله أكبر... لقد أسقط الرجال دبابة أخرى....."

-" هذا محال"

زاغت عينا قائد القوات الإسرائيلية و هو يتابع الموقف

و يتأمل تلك الخسائر التى حاقت به و بفئته...فى صحراء مفتوحة ليس لخصمه فيها خندق أو ساتر ومع ذلك يهاجم المصريون هجوم الأسود الضارية ويجبرون القوات الإسرائيلية على التراجع فى صغار.....

-" على جميع القوات الانسحاب إلى قواعدها"

عبر أجهزة الاتصال انتشرت تلك الكلمات فما كان من قواته إلا أن ارتدت للوراء فى ذلة وانكسار....

تأمل إبراهيم عبدالتواب انسحاب القوات الإسرائيلية فى سعادة ثم هتف بينه و بين نفسه

- "الحرب سجال."

كررها بينه و بين نفسه و هو يقوم بحصر قواته بعد تلك المعركة التى استمرت حتى الساعة الواحدة صباحا.

-"أرى أن يقوم الجنود بعمل حفر برميلية للاختباء والتمويه."

ارتد برأسه متأملا قائل تلك الكلمات انه مقلد

- ***" ليس من المنطق أن تبقى قواتنا فى العراء بينها و بين القيادة و بقية قواتنا هذه المسافة الشاسعة بهذه الطريقة سوف تصبح قواتنا فريسة سهلة المنال...على أي حال نحن فى انتظار تعليمات و أوامر قيادة الجيش الثالث."***

هز أمين رأسه مؤمنا و موافقا...

شيء من الطمأنينة مس قلبه حينما رفع إبراهيم بصره إلى السماء...تلك السماء الصافية بما فيها من نجوم.. صمت الليل و هدوئه لم يقطعهما سوى صوت الطلقات و دانات المدافع هنا و هناك

-" لقد وصلتنا هذه الإشارة للتو من قيادة الجيش يا افندم."

انتزعت تلك الجملة إبراهيم من أفكاره و تأملاته فنظر إلى قائلها باهتمام ثم تناول منه تلك الإشارة

-" هات ما عندك يا سعد."

ثوان هي كل ما استغرقه ابراهيم لقراءة الاشارة.

تأمله مقلد متسائلا:

- " هل صدرت الأوامر بالارتداد إلى قطاع احتلال الجيش الثالث الميداني؟"

-" بالضبط كما توقعنا علينا أن نرتد لنعسكر بالقرب من القناة لحماية الجانب الأيسر من الجيش الثالث الميداني. "

موافقا و مؤمنا هتف مقلد:

-"على بركة الله."

قرابة الساعة هو ما استغرقه اللواء فى ترحاله و انتقاله ، ليجد الرجال أنفسهم مرابطين بالقرب من شاطئ القناة.

-" يا لها من ليلة رمضانية جميلة..."

ترددت هذه الجملة فى عقل السيد وهدان وهو يقوم بحفر المزيد من الحفر البرميلية له و لمدرعته... نظرة خاطفة ألقاها على من حوله من الرجال، كل منهمك فى تنفيذ ما كلف به من مهام.... فى مخيلته ما زالت صورة أمه و عروسة ماثلة ..... لم يلبث معها طويلا بعد الزفاف.. شهور مضت وهو هنا فى الكتيبة. تحسس تلك الرسالة التى وصلته قبل العبور بأيام.. "نحن جميعا بخير زوجتك حامل..."

عانقت عيناه حروف تلك الرسالة...طواها باهتمام ثم أعادها بجوار قلبه كما كانت.... نظر الى الأفق الممتد عله يتحسس شيئا من ضوء الفجر الوليد.... بعيني المحنك الخبير أدرك أن وقت الإمساك قد اقترب تناول شيئا يسيرا من تعيينه القتالي ثم أتبعه برشفة بسيطة من الماء....علينا أن ندخر و نوفر قدر ما نستطيع..... هكذا تدرب و تعلم فى فرقة التعايش التى حصل عليها فى مدرسة الصاعقة ...حالة من الخدر و التعب سيطرت على جسده فأسند رأسه إلى جدار الحفرة و أغمض عينيه و ذهب فى سبات عميق.....لم يدر كم من الوقت مر عليه نائما إلا أن تلك الجلبة و الضوضاء القادمة من السماء زلزلت سمعه و كيانه ففتح عينيه الذاهلتين لتطالعه تلك الطائرات والتي رآها للوهلة الأولى كآلاف البوم و الغربان..... من مخبئه لمح ذلك السرب المهاجم...من طرف خفى لمح

الملازم نور فى حفرة قريبة، نظر إليه و إلى ذلك المجند المرافق له فى نفس الحفرة... يا له من سلاح غريب ذاك الذى حمله مرافق نور..... شعر بالذعر حينما رأى تلك الانقضاضة التى قامت بها الطائرة لدرجة أنه شعر أنها ستنقض عليه فى حفرته...كساقية محملة بالموت التفت الطائرة و استدارت فى لحظات.... لفت انتباهه بشدة ذلك المقذوف الذى خرج من حفرة نور...رآه كضبع أسود مفترس يطارد فريسته بإصرار...

انفجار رهيب مدو يصم الأذان حدث حينما ارتطم ذلك المقذوف بالطائرة...

- ***"الله أكبر .....الله اكبر"***

كتمساح أسطوري قفز جابر من المياه مهللا مكبرا...

-"الله أكبر لقد فعلتها يا نور"

نطقها المقدم إبراهيم فى سرور ثم تعالت و توالت تحذيراته عبر اجهزة الاتصال

- ***"على جميع القوات توخى الحذر فطائرات العدو سوف تعاود الهجوم والانقضاض من جديد."***

تناهى إلى سمع الجميع صوت طائرات العدو و هى تعاود الانقضاض من جديد ،هذه المرة انطلق المقذوف المضاد للطائرات من حفرة جديدة...تعلقت به العيون وهو يحذو حذو سابقه.. انفجرت الطائرة الثانية بصوت مدو و تناثرت شظاياها بعيدا عن الموقع

_" يا إلهى لقد أسقط الرجال الطائرة الثالثة. "

نطقها إبراهيم و سط تكبير الجنود ثم تطلع إلى السماء و هو يتابع بعينيه رحيل ما تبقى من سرب الطائرات الهاربة نحو الشرق.....إنه اليوم الحادي عشر من رمضان الموافق الأحد...خيل إليه أنه يسمع أجراس الكنائس.. صوت الآذان فى المساجد....

من خندقه تطلع إلى الأفق الممتد أمامه..... أصوات الانفجارات من حوله.. حديد الطائرات و المدرعات المحترقة ...رغم أوامره للجميع بالإفطار إلا أن معظمهم أصر على الصيام...

-"يا له من هدوء مريب و كأنه ذلك الهدوء الذى يسبق العواصف."

نطقها محسن علام فى تحفز و استعداد متوجها بها إلى إبراهيم السكرى ذلك الذى حمل سلاحه المضاد للدبابات فى صمت...

-"ترى ما الذى تحمله لنا اللحظات القادمة."

همس بها ابراهيم بينه و بين نفسه و قد امتزجت ملامحه بالكثير من اليقين و الثقة.

-" على جميع القوات الاستعداد للقتال فهناك هجوم مدرع يقترب."

تردد ذلك الصوت عبر أجهزة الاتصال فازداد الرجال شوقا للشهادة...لمعت عينا إبراهيم السكرى و هو يسمع ذلك النداء فهتف بينه و بين نفسه

-" حان وقت الثأر"

انه لسان حال الجميع منذ أن غادروا معسكر حبيب الله.

الأمر بالنسبة للرجال يبدو أمرا مألوفا للغاية فلطالما تدربوا على هذا..... من بعيد تراءت قوات العدو...كلما اقتربت كلما بدت أصغر و أحقر فى عيون الرجال.....

-"لا تطلق النار حتى تسمع الأمر من المقدم إبراهيم."

نطقها محسن علام مخاطبا رفيقه بالحفرة و قد تحفزت سبابته على سلاحه الثقيل ....تأمل الجميع ذلك الرتل المدرع و هو يقترب تتقدمه تلك الدبابة المهيبة... كل الحسابات العقلية تقول إن الغلبة لهؤلاء القادمين...ليس من المنطق أن تصمد كتيبة أمام لواء كامل مدرع....الجميع يتذكرون ذلك العهد الصادق ذلك العهد الذى قطعوه على أنفسهم ألا يرتدوا خطوة واحدة للوراء و ألا يفرطوا فى حبة رمال واحدة حتى لو كان الثمن حياتهم و دمائهم...النصر أو الشهادة.....

-"الآن."

ما إن تردد الصوت عبر أجهزة الاتصال حتى بدأ النزال.....أشبه ما يكون بعاصفة عاتية زلزلت مدرعات اليهود ....انطلقت النيران من كل الأرجاء والأنحاء...لم تهتز شعره واحدة فى جسد السكرى ولو للحظة و هو يشاهد

اقتراب مدرعات اليهود...لم يلتفت محسن علام ذلك الي المرابط معه فى نفس الحفرة....

-"يا له من صيد سهل."

بينه و بين نفسه نطقها محسن علام و هو يشاهد تلك السيارة تقترب...

- " هيا ايتها الجميلة اقتربي."

خرجت هذه الكلمات من بين شفتيه و هو يصوب سلاحه المتعدد نحو تلك السيارة ثم ضغط الزناد و مع ضغطته انطلق وابل من الطلقات فأصابت قلب الهدف و انقلبت السيارة و لاذ من فيها بالفرار ....

-"الله أكبر"

انطلقت صيحات التكبير صادقة ملتهبة فأحدثت فى نفوس اليهود وقعا أشد من الحسام ومن أحدث الأسلحة و أقواها

-"إنه دوري."

ترددت هذه العبارة فى نفس السكرى و هو يشاهد تلك الدبابة اليهودية تتهادى على صفحة الرمال ،ضاقت عيناه وهو يبحث عن ثغرة ينفذ من خلالها للقضاء على هذا الوحش الميكانيكي المهيب ...و قد كان... التفافة بسيطة استدارتها تلك الدبابة وجد فيها السكرى ضالته المنشودة... نحو منتصف الدبابة بالضبط أطلق السكرى صاروخه الموجه بالسلك ليقسم الدبابة إلى نصفين متساويين بطريقة مذهلة، يعجز أمهر العسكريين عن إيجاد تفسير لها

-"الله أكبر... الله أكبر."

ارتعدت فرائص الإسرائيليين مع تصاعد التكبير فسادت حالة من الارتباك بين صفوفهم....

-"على جميع القوات التقهقر والعودة إلى القواعد ... على جميع القوات التقهقر و العودة إلى القواعد..."

نطقها قائد القوات المدرعة الإسرائيلية عبر أجهزة الاتصال فبدأت قواته بالانسحاب و التقهقر

وسط صيحات التكبير المدوية التى انطلقت من حناجر الرجال

بعينين يملؤهما الظفر و السرور تابع المقدم إبراهيم من دبابته هروب القوات المعادية

-" هل نطاردهم ؟"

نطقها سعد الدسوقي مستفسرا و هو يشاهد فرار القوات الإسرائيلية المذعورة

- ***" كلا بل سننتظر تعليمات القيادة.....الآن علينا أن نطمئن على رجالنا...ثم نقوم بحصر الغنائم و الخسائر."***

حسم ابراهيم الامر بكلماته القاطعة ثم قفز خارجا من دبابته فتبعه الدسوقى ..

نظر إبراهيم إلي ذلك العجاج، سحب الدخان، تلك المدرعات المتفحمة التى خلفها العدو .....لفت انتباهه تلك المدرعة البعيدة و التى يبدو أنها قد اقتربت كثيرا

من ذلك الرتل المعادي...ما زال الدخان يتصاعد منها ....أرقه وألمه ذلك الأنين القادم من جوفها..فهرع إليها فى عجلة ومن خلفة أفراد السرية الطبية... يا له من مشهد حزين...جل من فيها قد استشهد .... أذهله ذلك المشهد الحزين...أحد الجنود و قد بترت ذراعاه يحتضن رفيقه الشهيد بعضديه.....يا له من اخلاص و وفاء....

-" هذه المتعلقات وجدناها مع هذا الشهيد يا افندم.."

نطقها أحد أفراد السرية الطبية و هو يناول إبراهيم عبدالتواب تلك الأشياء المخضبة بالدماء الحارة. شيء ما لفت انتباه إبراهيم بشدة، تلك الابتسامة العذبة الرقراقة التى اكتسي بها وجه الشهيد...ترى أي نعيم قد وقعت عليه عيناه فى وقت استشهاده...طابت له تلك الابتسامة لدرجة أنه تمنى الشهادة... فى هدوء نظر إلى تلك المتعلقات... سلسلة تعانق نهايتاها قطعة معدنية صغيرة مدون عليها بيانات الشهيد...هو ليس فى حاجة لقراءة تلك البيانات فهو يحفظها عن ظهر قلب... تأمل حافظة النقود الجلدية المتهالكة، ثلاث عملات ورقية فئة الخمس قروش وثلاث قطع معدنية فئة القرش، بطاقة ورقية،..

شيء واحد هو الذى لفت انتباه ابراهيم بشدة هو تلك الورقة التى استكانت فى صمت فى أحد أركان الحافظة، تبدو و كأنها قد أصابها وابل من الحزن لفراق الشهيد...شيء من العبير قد فاح حينما فرد إبراهيم تلك الورقة ليقرأ ما فيها

"بسم الله الرحمن الرحيم

أمي الحبيبة كم أشتاق إليكم جميعا إليك وإلى زوجتي وإلى أخي الأصغر وإلى صغيري ولكنى ربما أتأخر هذه المرة و ربما لا أعود .....أحبكم يا أمي و أشتاق إليكم كثيرا..ازرعى فى قلوب الصغار حب تراب هذا الوطن...و اذكرينى لصغيري دائما بالخير.

التوقيع ولدك المحب. "

طوى إبراهيم تلك الرسالة وأعادها حيث كانت بالحافظة. كم هى مؤلمة وقاسية تلك اللحظات التى نحاول فيها البكاء ولا نستطيع ...

_" احفروا مقابر جماعية للشهداء و انقلوا الجرحى والمصابين إلى المؤخرة حتى نتمكن من إرسالهم إلى أقرب مستشفى ميداني. "

نطقها إبراهيم مخاطبا بها قائد السرية الطبية ثم ألقى نظرة وداع على وجه ذلك الشهيد الباسم و استمر فى طوافه للاطمئنان على الرجال ....من بعيد لمح محسن علام يقتاد أسيرا على وجهه كل ملامح الذل والانكسار...

-" لقد تمكنا من أسر هذا الجندي بينما انتحر رفيقه. "

نطقها محسن علام فى شيء من التشفي و القوة

ثياب الأسير النظيفة تشى و كأنه حديث عهد بالقتال. نظرات الهلع فى عينيه أثلجت صدور الرجال

-"سلموه للمؤخرة لكى يسلموه للغرب"

_"ألم يحن وقت إفطارك بعد؟"

نطقها أمين قائد ثان الكتيبة وهو يشاهد رفيق دربه الودود و الذى شغله خوفه على الرجال حتى عن تناول طعام الإفطار..

-" الآن يمكنني تناول الإفطار فقد تأكدت من سلامة الرجال. "

قالها إبراهيم ثم ارتشف رشفات من تلك الزمزمية التى يحملها ثم تناول من شدته شيئا من التعيين القتالي

فى نفسه تردد سؤال

-"ترى ما بال أقوام يلتهمون ما لذا و طاب من الطعام و ينامون على فاخر الفراش و وثيره، يملئون الأرض ضجيجا عن حب الوطن؟"

.....حتى فى وقت العسرة و القتال لم ينس إبراهيم تأدية الصلاة....بعد أن فرغ إبراهيم من الصلاة رفع عينيه إلى السماء طالبا العون والمدد من الله عز و جل، مد بصره محاولا اختراق الشرق عله يستشف شيئا مما يخبئه هؤلاء ... تناول سلاحه اليقظ على الرمال و عاد إلى جهاده من جديد.....تأمل ذلك البدر المنير... انها ليلة الثاني عشر من رمضان....بدا له و كأن الرمال تحتضن خطاه... مد بصره نحو الغرب لتصافح عيناه صفحة القناة البعيدة ، جال بعينيه فى أرجاء الميدان المترامية. ما أجمل الليل حتى فى ميدان القتال...

****

ساهمة واجمة جلست تجتر ذكرياتها مع فلذات أكبادها. ثلاثتهم غادروا الي الميدان. ما زالت ضحكاتهم تغلف كل شيء من حوالها. في كل شبرا نقشوا أماني و أحلام. هنا يخطط أولهم للزواج. هنا رسم ثانيهم حلما. هنا حفر ثالثهم ضحكة.

-"تري هل كتب لنا اللقاء في هذه الدنيا مرة أخري."

سؤال عصف بذهنها كالألف الأعاصير فصدته بدرع الدعاء المتين. تهون كل الأشياء علي محراب الأوطان.

أثلج فؤادها سعيهم و هرولتهم الي الميدان. بثبات و يقين و دعتهم و شيعتهم. رغم أن المصاب واحد الا انهن قد جئن للاطمئنان عليها. همست احداهن

-" لا تكفي عن الدعاء يا أم الأبطال."

-"في كل فجر و في كل حين ادعوا الله لهم بالنصر و الثبات"

تهتف اخري

-"انهم فخر الرجال ذهبوا لمحو العار و الثأر."

تهمس أخري :

-"ألم يكن من الأفضل أن يبقي أحدهم الي جوارك و يذهب اثنان منهم للحرب."

تنهيدة مغلفة بالارتياح و الرضا و بكلمات معجونة بالصبر و الصمود و الثبات ردت :

-"من للأوطان اذا ما تقاعس الشبان؟"

تركتهم يهيمون في أحاديثهم و شردت بخيالها بعيدا بحثا عن فرسانها الثلاثة.

****

-" هل من تعليمات جديدة يا سعد؟"

نطقها القائد إبراهيم متوجها بها إلى سعد قائد سرية الإشارة و الذى أجاب فى احترام

- ***"نعم يا سيدى لقد وصلت إشارة للتو من قيادة الجيش تطلب منا أن نظل فى مكاننا لحماية الجانب الأيسر من الجيش الثالث الميداني..."***

- "حسنا عليك أن ترسل إشارة إلى قيادة الجيش تبلغهم بأخر التطورات القتالية."

- "تمام يا افندم . و لكن ...."

تلعثم سعد ولم يكمل عبارته فهتف به ابراهيم

-" و لكن ماذا ترى يا سعد؟"

-" أرى أنه من الأفضل أن تبقى فى مخبئك حرصا على حياتك يا سيدى ومن السهل أن تتواصل مع الرجال من خلال أجهزة الاتصال ."

تأمل إبراهيم ملامح سعد أنور بكل ما فيها من وسامة و براءة و بصورة لا تتناسب إطلاقا مع طبيعة الموقف ابتسم

- ***"رب جبان مات فى مخبئه و رب جرئ كتبت له السلامة."***

قالها ثم استمر فى مسيره متفقدا الرجال

فى تلك الليلة و على ذلك الضوء الميداني الخافت اجتمع القائد بأركان حرب الكتيبة

-" هنا تتمركز قوات العدو ليلا يا سيادة المقدم."

نطقها أمين و هو يشير إلى تلك الخريطة التى فردها على الرمال ومن حوله أركان حرب الكتيبة و قادة السرايا... أشار إلى نقطة فى اتجاه الشرق ثم واصل حديثه

- ***"هنا عند مطار تمادا تتمركز قوات العدو الرئيسية التى تنطلق منها هجمات العدو مع ملاحظة أن قوات المشاة والقوة المدرعة للعدو غالبا ما تتمركز هنا فى نفس القاعدة ليلا."***
- ***" أظن أن أي هجوم برى يجب أن يسبقه هجوم بالطيران."***
- ***" كلامك منطقي و سليم...يا سمير. "***

- " إذن يجب علينا أن نحفر المزيد من الحفر البرميلية لحماية الرجال و كذلك إخفاء المركبات خلف الكثبان الرملية و التباب وكذلك التأكد من مدى كفاءة المركبات و وجاهزيتها للكر والفر."

انتقل ابراهيم ببصره إلى جابر شعراوي ضابط الشئون الفنية بالكتيبة و الذى رد بتلقائية قائلا

-" لقد قمنا بصيانة جميع المركبات التى تعطلت بعد العبور و هى جاهزة للعمل بإذن الله ، أما عن السواتر فجميع المركبات مؤمنة جيدا."

انتهى جابر من عبارته فنظر إبراهيم إلى الملازم نور قائد سرية الدفاع الجوي قائلا

- " هل لديكم أي مشاكل فى الاسلحة و الذخائر ؟"

هز الملازم نور رأسه نفيا و أردف مجيبا

-" اطلاقا يا افندم كل الأمور على ما يرام."

صمت إبراهيم لثوان متأملا وجوه الرجال

- " أريدكم أن تعاهدوني.."

توجهت جميع الابصار صوب إبراهيم بعد هذه العبارة فتساءل محسن علام

- "على ماذا نعاهدك يا سيادة المقدم؟"

صمت إبراهيم لثوان وكأنه يستعد لإزاحة حمل ثقيل من فوق كاهله

- " تعاهدوني ألا نعود خطوة واحدة للوراء و ألا نفرط فى حبة رمل واحدة حتى لو دفعنا أرواحنا ثمنا لهذا ."

قالها ثم مد يده أمام الجميع بلا تردد وبلا حرف واحد امتدت أكف الجميع لتعانق كف القائد.....

-"يا له من توقيت عبقري للعبور .."

ترددت هذه العبارة فى نفس إبراهيم و هو يتطلع نحو الشرق عبر منظاره المكبر...كم هى جميلة تلك اللحظات التى تسبق شروق الشمس، كاد النوم أن يغلبه إلا أن شيئا ما ترأى له فى منظاره أطار خدر النوم من عينيه. من بعيد ظهر له رتل مدرع للعدو يقترب فى إصرار فهتف فى رجاله عبر جهاز الاتصال

-"على جميع القوات الاستعداد للقتال...رتل معادى يقترب"

تردد صوت المقدم إبراهيم محذرا عبر أجهزة الاتصال فاتخذ الرماة أماكنهم داخل الدبابات بينما اتخذ أفراد المشاة أنسب المواقع و أفضلها لصد المعتدين

-"يا له من صباح مشرق و جميل نطقها عصام هلال مصحوبة بابتسامة عريضة و هو يستعد للقتال داخل دبابته الخفيفة."

فنظر إليه رفيقه حمدى فى شيء من الحنق و الضيق

-"كم أود أن أعرف سبب ابتسامتك العريضة فى وقت المحن و الشدائد..."

-"يوما ما سأخبرك يا صديقي، فقط عليك الآن أن تستعد لهذا الصباح المشرق.. "

قالها ثم انحرف عن مساره فى حدة متفاديا تلك القذيفة المعادية و التى انفجرت على بعد أمتار من دبابته

تأمل حمدى ما يفعله رفيقه عصام فى ذهول فتلك الدبابة ال بي تى ٧٦مللى لا وجه للمقارنة بينها و بين تلك الدبابة الحديثة ذلك الوحش الميكانيكي و الذى تتباهى به الترسانة الأمريكية....

-" بهذه الصورة أنت فى مرمى قناصة العدو."

نطقها حمدي في هلع و هو يشاهد جرأة عصام و الذي هتف مخاطبا اياه

-"استعد لأطلاق القذيفة صوب الدبابة."

نظر قائد طاقم الدبابة الإسرائيلية إلى دبابة عصام هلال فى شيء من الحنق والذهول....أى شبح قد سكن هذه المدرعة القديمة...و كأن حماس الرجال و عزيمتهم قد كست كل ما معهم من معدات

-". الآن"

نطقها عصام فى حماس و قوة فأطلق الرامي قذيفته فى إصرار و عزيمة و أصاب قلب الدبابة

-"الله أكبر...الله أكبر."

ارتفعت صيحات التكبير من الحناجر فأحدثت فى قلوب الإسرائيليين وقعا أشد من احدث الأسلحة و أشدها فتكا ..

-"أنا لا أصدق."

نطقها حمدى نجيب فى دهشة وهو يشاهد تلك النهاية المأساوية لهذه المدرعة الاسرائيلية؛فقد أصابتها القذيفة إصابة بالغة..

كادت الدموع أن تغالب دافيد اليعازر قائد القوات المدرعة الإسرائيلية وهو يشاهد ما فعلته دبابة عصام هلال بذلك الوحش الإسرائيلي المتطور، لقد أصر أن يقود هذه المعركة بنفسه ليرفع الروح المعنوية لدى جنوده ...

-"على جميع القوات الهجوم من الجهة اليسرى.."

حملت أجهزة الاتصال صوت دافيد إلى جنوده فبدأوا بالالتفاف من جهة اليسار..

-"يا لك من ماكر قذر ."

تنامى شعور بالحماس و الظفر فى نفس إبراهيم عبدالتواب و هو يشاهد تلك الإلتفافة التى قامت بها دبابة قائد القوات الاسرائيلية عبر أجهزة الاتصال هتف عبدالتواب

-" محسن علام عليكم بتعزيز الجانب الأيسر ومنع قوات العدو من التقدم."

-"تمام يا أفندم."

بكل ما فى الكون من إصرار و قوة و رغم خطورة الموقف وصعوبته فقد استمر محسن متشبثا بذلك المدفع الرشاش بجرأة و جسارة

وفجأة لاح له ما تمنى ناقلة جند إسرائيلية ظهرت فى مرماه لجزء من الثانية...

-" الله أكبر "

أطلق محسن ذلك الهتاف قبل أن تضغط سبابته على زناد مدفعه النصف بوصة لينطلق وابل من الرصاص أصاب خزان الوقود....

انفجار هائل صحبه دوى أعقبه ألسنة من النيران نشبت فى تلك الناقلة التى لم ينج منها أحد

تلك التكبيرات أحدثت ارتباكا قويا و حادا فى صفوف الإسرائيليين فاصطدمت مدرعة بأخرى

تكررت مناورات الاسرائيليين و محاولاتهم للتقدم و الاختراق، إلا أنها جميعا قد باءت بالفشل

-"أي نحس هذا الذى يلازمنا."

حينما شعر قائد القوات باليأس هتف بكل ما فى الكون من حنق عبر أجهزة الاتصال

- "على جميع القوات العودة إلى القواعد و اتخاذ وضع الانسحاب الآمن."

ما ان نطقها الجنرال ديفيد حتى استدارت القوات الاسرائيلية بطريقة ماكرة لتعود إلى قواعدها..

-" يا لها من فرصة سانحة لمطاردة ذلك القطيع الهارب."

فى عقل شوقى الجوهري طاب له هذا الرأي فطلب من سائق الدبابة أن يستمر فى مطاردة فلول الهاربين...

-" على جميع القوات العودة إلى مكان تمركز الكتيبة...على جميع القوات العودة إلى مكان تمركز الكتيبة و عدم مطاردة فلول العدو."

صوت المقدم إبراهيم عبدالتواب عبر أجهزة الاتصال حسم الموقف فتوقف الرجال عن المطاردة و عادوا أدراجهم بلا سخط أو تذمر.

بعد أن هدأ صليل المركبات و ضجيجها و انقشعت سحب الرمال تأمل ابراهيم ميدان المعركة ...

لفت انتباهه بشدة ذلك المشهد الغريب إنه عصام هلال يربت على مقدمة الدبابة

- "شكرا لك أيتها البي تي ..العزيزة.."

وكأنه يراها مهرا عربيا أصيلا اجتازت معه المعركة، رغم فداحة الموقف و جسامته إلا أن شيئا من الرضى قد ارتسم على القلوب قبل الوجوه..

-"لم ولن نترك لهم الموقع ولم ولن نتخلى عن حبة رمل واحدة."

نطقها فوزى ذلك الشاب الأسمر النوبي و هو يرفع سلاحه فى الهواء.

-" يا لهم من رجال هؤلاء الذين من حولك يا ابراهيم،كل شخص منهم يصلح أن يكون رواية و قصة فى عشق مصر."

ترددت هذه الجملة فى عقل إبراهيم و هو يتجول فى أرض المعركة لم يختلف اليوم كثيرا عن اليوم السابق، وجوه الشهداء الضاحكة المستبشرة، متعلقاتهم البسيطة خطاباتهم لذويهم كلمات الاشتياق و الحنين، رابط واحد بينهم جميعا هو تلك الأمنية النبيلة؛ إنها الشهادة كلهم تمنوا الشهادة بصدق...

-"يا لها من مهمة نبيلة و مشرفة."

نطقها إبراهيم عبدالتواب وهو يطالع تلك المهمة القتالية الجديدة والتي أسندتها قيادة الجيش الثالث الميداني لهؤلاء الرجال ، تأمل إبراهيم فى وجوه قادة السرايا لبرهة ثم هتف قائلا:

- ***"لقد اختارتنا قيادة الجيش لاقتحام نقطة كبريت الحصينة . و لكى نتمكن من القيام بهذه المهمة يجب نعرف كل شيء عن هذه النقطة ...أليس كذلك يا سمير."***

التقط سمير طرف الخيط من قائده فواصل قائلا:

- ***"نقطة كبريت أو حصن بورترز كما يسميه الإسرائيليون هو أقوى الحصون الإسرائيلية على خط برليف و هذه النقطة مزودة بمستشفى ميداني به غرفة عمليات جراحية مجهزة لإجراء العمليات الجراحية .."***

صمت لبرهة وهو يتفرس فى وجوه الرجال ثم أردف مواصلا:

-" هذه النقطة تستطيع أن تتحمل الموجات الانفجارية لجميع انواع القنابل حتى الألف رطل."

مزيج من الاهتمام و اللهفة ارتسما على الوجوه

-" يا لها من مهمة بسيطة."

نطقها عصام هلال بشيء من المرح الذى لا يتناسب نهائيا مع الموقف.

نظر إليه حمدى نجيب معاتبا بينما تابع إبراهيم عبدالتواب حديثه قائلا:

-" هناك نقطتان مهمتان كنت أود أن أناقشهما معكم النقطة الأولى هى توقيت الهجوم....هل نقوم بالاقتحام فى جنح الظلام أم ننتظر حتى أول ضوء للصباح....دعونا نسمع رأى النقيب شوقى الجوهري."

-" أرى أن نهاجم النقطة صباحا لأن الهجوم ليلا سوف يكبدنا الكثير من الخسائر و خصوصا أننا قد نتعرض لكمائن و فخاخ و حقول ألغام مجهولة تماما لنا. "

لاقت كلمات و رأى شوقى قبولا واستحسانا لدى الجميع فهتف المقدم أمين

-" أنا أؤيد رأى شوقى تماما. "

توالت عبارات التأييد لرأى شوقى فهتف إبراهيم

- " و الآن بالنسبة لخطة الهجوم أرى أن نهاجم النقطة بنصف القوة و النصف الثاني يبقى كساتر و دعم أليس كذلك يا أمين؟"

-" دعني أخالفك فى الرأي هذه المرة أرى أن نهاجم النقطة بسرية وتبقى السريتان الأخريان للدعم وكساتر للسرية المهاجمة."

نالت الفكرة حظا من الاعجاب و القبول فى نفس ابراهيم فتابع

-" علينا الآن أن نتأكد من جاهزية الأفراد و المعدات...هل تود أن تقول شيئا يا سامى"

-" كنت أتساءل عن كيفية الهجوم؟"

بشيء من الغموض هتف ابراهيم

-" عضة الكلب تكون قاسية حينما تحاصره من جميع الاتجاهات.."

نظرة دهشة تلك التى أطلت من وجوه الجميع عدا ذلك الفطن عبدالرازق شامه و الذى ابتسم قائلا

- " تقصد أننا لن نحاصر النقطة من جميع الاتجاهات وسنترك لهم اتجاه ليهربوا منها"

اكتسى وجه إبراهيم بابتسامة واثقة فما أجمل أن يفهمك رجالك.

-" هل هناك أي مشاكل أو استفسار بخصوص المهمة الجديدة؟"

توالت الاجابات بالنفي من أفواه الرجال فاطمأن القائد إلا أن شيئا ما زال فى نفسه. هذا الشيء استطاع الرجال أن يقرؤونه فهتف الملازم أسامه عبدالله

- "ما زلنا على العهد باقون يا حضرة القائد؛أى خطوة خطوناها للأمام لن نعودها للخلف و الله على ما نقول شهيد."

-" هذا هو عهدي بكم دائما أيها الرجال."

بكل ثقة و يقين نطقها إبراهيم عبدالتواب ثم انصرف الرجال بعد أن حصل كل منهم على مهمته...

****

" هنا القاهرة ...."

تناهى صوت ذلك المذياع الصغير إلى أذان إبراهيم عبدالتواب .. تاقت روحه إلى زوجته و صغاره، مد بصره إلى السماء ثم جال ببصره فى أرجاء الميدان...تناهى الى سمعه صوت الانفجارات و الدانات.... مازالت فى أذنيه أنات الجرحى و المصابين و أمام ناظريه ما زالت صور الشهداء.....دمائهم الحارة،متعلقاتهم،

تلك الابتسامة العذبة التي كست وجوههم... لفت انتباهه ذلك الضوء الخافت القادم من أحد الخنادق...مشهد غريب غير مألوف فى الحروب على الإطلاق... إنه محمد نور الدين ذلك العنيد و قد استل قلما و أخذ يدون يومياته و مذكراته...

-" هل انتهى أديبنا الكبير من تدوين سيرته الذاتية؟"

نطقها إبراهيم عبدالتواب مداعبا

اكتست ملامح محمد بالكثير من السرور وهو يتأمل قائده المحبوب

- " غدا سترى يا حضرة القائد حينما يتهافت الملايين على قراءة مذكراتي."

-"يتهافت عليها الملايين و حتما ستصبح أنت من اصحاب الملاليم."

انطلقت ضحكة صافية من صدر محمد...

-"لدى سؤال كنت أود أن أسألك إياه؟"

- " سل ما شئت يا حضرة القائد."

-" دائما أراك تسعى للقتال فى الخطوط الأمامية ألم تشعر بالخوف و لو لمرة واحدة .."

-" أكون كاذبا إذا أخبرتك أنى لم أشعر بالخوف فيما مضى...ولكن هنا فى ميدان العزة و الشرف الأمر يختلف تماما كل الرجال من حولك حريصون على الشهادة أكثر من حرصهم على الحياة...."

كثير من الاحترام و التبجيل حملته نظرات ابراهيم لهذا الفارس

- ***" أتمنى أن يأتي يوم نجلس فيه سويا لنقرأ تلك المذكرات الرائعة و نحكيها لأولادنا و أحفادنا ليتعلموا منها..."***

كالفهد قفز محمد خارجا من خندقه ليعانق إبراهيم عناقا دافئا لا يعرفه سوي الأبطال ،ربت كل منهما على ظهر الآخر فى مودة و إخاء بعدها استمر إبراهيم فى تجواله بالكتيبة..

-" تمام يا افندم...جميع القوات مستعدة للاقتحام."

قبيل بزوغ شمس التاسع من أكتوبر خرجت هذه الكلمات من فم المقدم أمين مقلد مؤديا التحية العسكرية أمام القائد والذى رفع يده ردا للتحية

- ***"بسم الله و على بركة الله نبدأ الاقتحام"***

قالها ثم قفز داخل دبابة القيادة ليبدأ الزحف نحو كبريت، ساعة فقط هو ما استغرقته الرحلة ليجد الرجال أنفسهم على مشارف تلك النقطة الحصينة.....حينما تأمل إبراهيم ذلك

الحصن المنيع أدرك خوف اليهود و حرصهم علي الحياة. تأمل القائد حماس الرجال و عزمهم و كأنهم في عرس. لا أثر للخوف في النفوس او علي الوجوه رغم الموت

- ***" و الآن بعد أن فتحنا هذه الثغرة فى حقل الألغام سندفع بسرية النقيب شوقى الجوهرى للهجوم بينما تبقى السريتان الأخريان للدعم و التغطية و سوف نهاجم من الشرق و الجنوب الشرقي. "***

نطقها إبراهيم عبدالتواب مذكرا الرجال ببنود الخطة فهتف جابر شعراوي متسائلا

- ***" و ماذا عن الشمال يا افندم"***

-" هل نسيت ما قلناه بالأمس عن عضة الكلب اليائس حين تحاصره من جميع الاتجاهات.....و الآن هل سرية النقيب شوقى مستعدة؟"

بصوت الواثق من نصر الله هتف الجوهرى

- ***" على أتم استعداد يا أفندم."***

ما إن نطقها الجوهرى حتى أعطى إشارة البدء لسريته بالانطلاق.... ثلاثون مترا فقط هى تلك المسافة التى قطعتها أول دبابات السرية قبل أن يصيبها لغم ماكر.....، انفجار قوى صم أذان الجميع، لحظات من الصمت المر قطعها صوت القائد إبراهيم عبر أجهزة الاتصال

-" على جميع المركبات التوقف..."

قالها ثم هرع إلى تلك الدبابة

-" يا الهى لقد استشهدوا جميعا

بحروف امتزج فيها الحزن بالأسي نطقها سعد الدسوقى قائد ثالث الكتيبة بينما تأمل إبراهيم فى وجوه الشهداء...انها نفس الابتسامة السعيدة الراضية .... إنه ميدان القتال حيث الألفة بين الموت و الحياة.

-" سوف نهاجم النقطة راجلين "

نطقها إبراهيم عبدالتواب فى حسم فهتف مقلد قائلا

-" و ماذا عن الدبابات؟"

-" سوف نتركها هنا وسنترك فى كل دبابة السائق و الرامي."

قالها ثم أشار إلى ضابط المهندسين

-" ستسير أنت فى المقدمة ومعك جهاز كشف الألغام وأنا من خلفك، ومن خلفي سوف يسير مقلد ثم الدسوقى ثم قادة السرايا خلف كل قائد أفراد سريته بكامل التسليح."

-" تمام يا أفندم. "

ما إن نطقها مقلد حتى شرع الرجال فى تنفيذ الأمر .مشهد مهيب يشيب له الولدان يحمل كل معانى التضحية و الفداء...إبراهيم عبدالتواب فى المقدمة خلف ضابط المهندسين يتبعهم بقية الرجال

-" يا لها من مفاجأة سخيفة. "

نطقها إبراهيم عبدالتواب و هو يتأمل تلك الأرض السبيخة الرخوة. بدت لها كبحر من الرمال المتحركة. بدا الاصرار علي وجه ابراهيم فهتف بينه و بين نفسه

-"و ليكن أيها الجبناء."

وكأن سمير عبدالعزيز قرأ ما في نفس قائده فتبسم قائلا:

-"وكر الثعالب لا يخلوا ابدا من الفخاخ و المكائد

نطقها و هو يخطو بحذر فوق تلك التربة الرخوة

هازئا بالأخطار رد عصام

-" يا لها من مغامرة شيقة و مثيرة."

-" حتما ستصيبني بالجنون.."

محملة بسحب الغضب و العتاب نطقها حمدى نجيب متوجها بها إلى عصام هلال ذاك الذى بدت الابتسامة و السرور على وجهه فهتف به حمدى نجيب

- ***" أراك مبتسما سعيدا و كأننا فى نزهة بالقناطر الخيرية..."***
- ***" يوما ما ستعرف سبب ابتسامتي ايها الصديق العزيز.."***

ما إن انتهت تلك المنطقة السبيخة الرخوة حتى عصفت بهم مفاجأة جديدة...علي مشارف الحصن كان بانتظارهم حقل الغام جديد. نظرة اصرار و تحد تبادلها الجميع صاحبها صمت لم يدم لثوان قطعه الجوهري قائلا:

- ***"سوف نتقدم الكتيبة راجلين انا و سريتي لنستكشف الحقل و على إثرنا و خطانا سوف تتبعنا بقية القوات."***

بلا تردد هتف القائد

- ***" محال...ما تود فعله هو الانتحار بعينه يا شوقى. "***
- ***" هذا صميم عملنا و لهذا تم تشكيل هذا اللواء...ألسنا نحن أول مسمار فى نعش اسرائيل كما قال الفريق الشاذلي...أرجوك يا حضرة القائد أن تمنحنا هذا الشرف. "***

أمام إصراره و عزيمته لم يجد ابراهيم بدا من التسليم و الإذعان...

ليس لك أن تتخيل شخصا يختار السير فى حقل ألغام راضيا مختار فداء لتراب وطنه...

كاد قلب القائد أن يتوقف و هو يشاهد شوقى و سريته يجتازون حقل الالغام فى هدوء و ثبات

تنفس ابراهيم الصعداء حينما اجتازت سرية شوقى حقل الالغام. ابتسامة ظافرة كست وجوه الرجال.

-"علينا ان نبادر بالهجوم لذلك عليكم أن تطلقوا النار و بغزارة فى كل الاتجاهات صوب قوات العدو و من كل الأسلحة."

نطقها ابراهيم فى حزم فبدأت القوات فى اطلاق النيران بغزارة، بينه و بين نفسه كان يتوقع خسائر جسيمة فى صفوف قواته خاصة وأن الدشمة الرئيسية للنقطة الحصينة تقع فى منطقة مرتفعة. إلا أن القدر كان يخبئ لهم مفاجأة

سارة لم تتوقعها عقولهم، حينما ظهرت طلائع الأشاوس سيطرت حالة من الهلع على اليهود فتركوا مواقعهم و فروا هاربين...زلزلت أصوات التكبير أرجاء الحصن...احتضنت الرمال جباه الساجدين السعداء،

بعد أن نهض من سجوده صعد إبراهيم إلى أعلى نقطة فى الحصن ليرفع العلم ..لحظات تعجز الأقلام عن وصفها....

-"يا لهم من قوم بخلاء لم يطلقوا رصاصة واحدة ترحيبا بنا."

نطقها عبدالرازق شامه فى سرور و هو يحتضن بعينيه كل أرجاء الحصن نظر إليه رفيقه سعد أنور بشرا و سرورا

- "من قال هذا لقد تركوا لك خيرات كثيرة ألا يكفيك هذا."

قالها مشيرا إلى مراكز الملاحظة المزودة بأحدث المدافع والرشاشات الحديثة هذه النقاط و الابراج العالية قادرة على كشف الموقع كاملا أسفلها، تأمل الرجال صناديق الذخيرة المنتشرة بغزارة فى جميع أرجاء الموقع، كل انواع القنابل. نقطة تهوية للوقاية من الغازات الحربية، جهاز لتوليد الكهرباء يكفى لإنارة مدينة كاملة ، دشمة حصينة عرضها عشرون مترا بها أحدث أجهزة اللاسلكي، محطة كاملة لاستخراج المياه الجوفية تكفى مدينة كاملة....

هناك و داخل أحد الملاجئ وقف سعد انور ذاهلا

-"إنها محطة تراسل كاملة."

نطقها و هو يشاهد تلك الأجهزة الحديثة مخاطبا قائده الودود

-" علينا أن نرسل هذه الأجهزة إلى القيادة فى الغرب ليتم فحصها."

نطقها إبراهيم عبدالتواب ثم غادر الدشمة خارجا متأملا كل ما يحيط بالنقطة.

-"يا إلهى لو أن جندي واحد منهم ظل فى موقعه و وجه سلاحه إلينا من هذا المكان المرتفع لأبادنا عن بكرة أبينا."

نطقها سمير و هو يشير إلى الجنود الإسرائيليين و هم يفرون فى هلع فى مشهد يحمل كل معانى الجبن والذلة..لقد هرعت القوات الإسرائيلية الى أنفاق الهروب حيث توجد سيارات مصرية غنموها فى عدوان ٦٧ ولاذوا بالفرار

-" هل نطاردهم يا حضرة القائد؟"

نطقها مقلد حينما لمح تحفز الجنود لملاحقة فلول اليهود.

- "كلا لا تلاحقوهم."

قالها ثم توجه بحديثه لسمير قائلا:

-" أريدك أن تذهب أنت و جابر و تحضرا الدبابات التى تركناها بعيدا خارج الحصن."

سنة من الدهشة والحيرة تلك التى أخذت سمير وجابر ولكنهما لم يجادلا بل هتفا فى وقت واحد:

-" تمام يا أفندم."

هما لا يعرفان أي شيء عن هذا الحصن و لا عن مداخله و مخارجه و لا عن حقول الألغام من حوله. انها الجسارة و الإقدام و الطاعة أهم ملامح المقاتل المصري.

-"و كأننا ذاهبان لإحضار حقيبتان من خارج النقطة."

نطقها سمير فى مرح بينما توقف جابر و دار بناظريه فى المكان لحظات. كمن وجد ضالته هتف جابر

- ***"وجدتها."***
- ***" ترى ما الذى وجدته يا سيد ارشميدس؟***

هل اكتشفت قانونا جديدا للطفو سوف نحمل به الدبابات من الخارج الى هنا؟"

أشار جابر الى احدى سيارات البوليس الدولي :

- ***" هذا هو اكتشافي أيها المرح..سيارة البوليس الدولى..عليها شعار الأمم المتحدة ، و هذا سوف يحمينا بالقطع من ضربات الطيران المعادي.."***

اتسعت عينا سمير فى دهشة ثم استمر فى دعاباته

-" نكرني لاحقا حينما نعود أن أخلع خوذتي احتراما لذكائك."

قالها ثم قفزا داخل السيارة و انطلقا بها.....

-" يا له من حظ سعيد "

قالها جابر حينما لمح ذلك الطريق المرصوف ، وبصورة لا إرادية أطلق لسيارته العنان فوقه فهتف به سمير محذرا

- ***"أرى أن ننتبه جيدا حتى لا ندخل بأرجلنا وكر اليهود...عليك أن تسير بمحاذاة القناة."***
- ***"وهو كذلك يا صديقي."***

بعيني فرد الاستطلاع الماهر تأمل سمير المكان من حوله، حاول جاهدا أن يختزن فى ذاكرته كل التفاصيل المتاحة أمام عينيه، بعد قرابة النصف ساعة وصلا إلى مفترق طرق، ملاحظة دقيقة تلك التى التقطتها عينا سمير، أجزاء الأسفلت عند مفترق الطرق تبدوا مهشمة..

- ***" لا شك أن دبابة يهودية هى التى أحدثت هذا الأثر.."***

نطقها سمير مشيرا إلى ذلك الطريق الأسفلتي المهشم

- ***"قل لي بربك أي طريق نختار؟"***
- ***"أرى أن نبتعد عن الشرق حتى لا نقع بين براثن اليهود."***
- ***" إذن هو هذا الطريق ."***

نطقها جابر و هو يستدير بالسيارة لتسلك ذلك الطريق جهة اليمين..

ما بين تهليل و تكبير استقبلهما سائقو الدبابات

-" والآن أيها الرفاق عليكم أن تتبعوا سيارتنا هذه لنصل إلى القائد إبراهيم بسلام.

نطقها جابر ثم دلف إلى سيارته ثم تبعه سمير وانطلق الركب إلى كبريت، لم تفزعهم أو تقلقهم أصوات الدانات والطلقات من حولهم،

-" تمام يا أفندم، لقد أحضرنا جميع الدبابات إلى الموقع بسلام"

مؤديا التحية العسكرية نطقها سمير أمام قائده و الذى نظر إليه بمزيج من الدهشة و عدم التصديق ثم هتف بسمير قائلا

-" أي أمر هذا الذى تدعى أنه تمام؟"

نطقها إبراهيم بشيء من عدم التصديق فرد سمير بمنتهى الثقة فما فعله الرجال بدا له أمر خارقا صعب التصديق

-" أقول لسيادتك أننا أحضرنا جميع الدبابات إلى الحصن بدون أي خسائر و ها هى الدبابات يا افندم."

قالها سمير و هو يشير إلى تلك النقطة خلف إبراهيم عبدالتواب والذى استدار بدوره لينظر حيث أشار سمير، أسعده المنظر فقد أنجز سمير و رفيقه المهمة فى وقت قياسي.

-"خذ هذا لك و لرفيقك أيها الطفس ."

نطقها إبراهيم عبدالتواب و هو يقدم لسمير و رفيقه كيس من البلاستيك به عدد من ثمرات التفاح الفاخر و زجاجة من المياه الغازية. ما إن تناول سمير الكيس والزجاجة حتى نظر ابراهيم إلى مقلد و الدسوقى قائلا

- " علينا أولا تسكين الدبابات فى الحفر وغدا بإذن الله سوف نوزع الدبابات فى الحفر حسب السرايا."

قبل أن تمتد يده إلى ذلك الترفيه الفاخر تأمل سمير ذلك الحصن المتين تأمل تلك الدشمة الرئيسة و التى ترتفع قرابة الخمسة و عشرين مترا عن سطح الأرض بطريقة تدريجية ،تأمل تلك المدافع المنصوبة فى أعلى الدشمة و إلى جوارها صناديق كاملة من الذخيرة، لفت انتباهه بشده تلك الخنادق والملاجئ الحصينة، ثلاثون ملجأ وسبعة عشر حفرة للدبابات، سيطر عليه فضول جارف لاستكشاف بقية الحصن، لم يكد يصدق ما رأته عيناه.....مستشفى ميداني كامل به امكانية اجراء جراحة، مبيت الجنود الفاخر، تلك المواقد الحديثة و ما بها أوعية فاخرة..... تسللت إلى أنفه رائحة طعام شهى. سار خلف الرائحة كالمسحور ليكتشف موقدا حديثا يعمل بالغاز ،فوقه وعاء به خضار شهى مطبوخ ،

-"موشي ديان يتمنى لكم صوما مقبولا و افطارا شهيا."

نطقها عصام هلال فى مرح و هو يتناول شيئا من هذا الطعام الشهي مع تصاعد صوت الاذان من ذلك المذياع الصغير، نظر اليه سعد أنور قائلا:

-" لم أكن أتخيل فى حياتي ان أتناول مثل هذا الطعام الفاخر فى الميدان.."

-"وداعا أيها الخشبسكو العزيز. "

نطقها محمد نور الدين و هو يخرج ذلك البسكويت الميداني ويضعه جانبا وما إن أتم جملته حتى فاجأه صوت ابراهيم عبدالتواب من الخلف

- ***" احترس أيها الصديق الخشبسكو الابيض ينفع فى اليوم الأسود .."***

تعالت الضحكات من أفواه الرجال حينما سمعوا تلك الدعابة التى أطلقها قائدهم و الذى نظر الى سمير عبدالعزيز مداعبا:

-"أظن أن رادارك الأنفي هو ما قادك الى هذه الوليمة الشهية."

نظر اليه سمير بسعادة غامرة :

- ***" بالتأكيد يا حضرة القائد والا ما استحققت أن أكون قائد سرية الاستطلاع..."***
- ***"حسنا يا حضرة القائد بعد أن نشرنا قواتنا فى النقطة علينا أن نجتمع بقادة السرايا و الفصائل بعد الافطار لعرض و مناقشة التعليمات الصادرة الينا من القيادة... "***

نطقها ابراهيم عبدالتواب وقد اصطبغت حروفها بالجدية ثم غادر المكان..

-" يا له من رجل مخلص دؤوب. "
نطقها سعد انور و قد تعلق ناظريه بإبراهيم عبدالتواب مغادرا المكان..

-" علينا أن ألا نضيع الكثير من الوقت فى تناول الإفطار فلدينا مهام قتالية علينا أن نطلع عليها كما انه لم يبق فى المكان سوانا فقد غادر الجميع..."
نطقها سمير و هو يتناول طعامه بشيء من السرعة
-" و لا تنسي اجتماعنا مع السيد قائد اللواء و قائد الكتيبة ابراهيم عبدالتواب...."
- ***" تقصد سيادة العميد محمود شعيب قائد اللواء. "***
-" أشعر بالراحة حينما أنظر فى وجه هذا الرجل الطيب "
قالها ثم جال بعينيه فى ارجاء ذلك الملجأ الحصين و المخصص لصناعة الطعام تأمل تلك القوائم الفولاذية الضخمة مواقد الغاز الحديث تلك الأوعية الفاخرة
-" يا لهم من مرفهين. "
نطقها سعد أنور ثم شرع فى الخروج تبعه سمير عبدالعزيز..
خارج الملجأ كان بانتظارهما مشهد خلاب، انه بدر ليلة الرابع عشر من رمضان، بدا و كأنه يرغب فى مشاركة الرجال هذه اللحظات المشهودة ..
توقفا لثوان و جال كل منهما ببصره فى المكان و بدون كلمة واحدة توجها الى حيث اجتمع الرجال...
-"قيادة الجيش الثالث الميدانى تقدر بطولتكم وتعتز بها."
نطقها محمود شعيب مستهلا بها حديثه الى قادة السرايا و الفصائل و دون أن يتلقى تعقيبا واصل حديثه

-" كنت أو أن أراجع معكم الخطة الدفاعية و تصوركم للحفاظ على الموقع و عدم التفريط فيه."
قالها ثم أشار الى ابراهيم عبدالتواب والذى أنبري مجيبا
-" بالنسبة لمقدمة النقطة من الناحية اليمنى سوف تتولى حراستها و الدفاع عنها سرية النقيب سامى حجازي و الناحية اليسرى سوف تتولى الدفاع عنها سرية الملازم اسامه عبدالله ،و سرية النقيب شوقي الجوهرى و محسن علام و الجنوب فسوف يتولى الدفاع عنها ما تبقى من رجال الكتيبة ٦٠٢ اما عن المؤخرة من ناحية البحيرات فسوف تتولى حراستها والدفاع عنها سرية النقيب ابراهيم العجمي بينما يتم توزيع السرايا و الفصائل المعاونة حسب مقتضيات القتال.. هذا بخصوص توزيع القوات على الارض، و كذلك سوف ندفع بدوريات ليلية لضرب العدو و زعزعة استقراره هذه الدوريات تتكون من ضابط و خمس جنود."
سكت ابراهيم فهتف شعيب
-" هل هناك اى ملاحظات بخصوص الامداد و التموين؟"
سكت ابراهيم لثوان اكتست ملامحه فيها بالاهتمام و الجدية أجاب :
-" هذه النقطة بالذات يجب ان ننتبه لها جيدا. الموقف فى ظاهرة جميل فقد ترك اليهود خلفهم مخازن بها مؤن تكفينا مدة لا تقل عن شهرين، و لكنهم لن

يتركونا ننعم بما فيها، فهم يعلمون جيدا أماكن المؤن وبالتأكيد هى أول النقاط التى سوف يدكوها دكا ..."
هتف سامى حجازي
-" علينا أن نحتاط لهذا الامر جيدا و لكن علينا ألا ننسي مهمتنا الرئيسية فى تعطيل احتياطي العدو و شغله عن قواتنا القادمة من الغرب.. "
رد ابراهيم

-" لقد عاهدت الله أنا و الرجال الا نعود للخلف خطوة خطوناها للأمام ولو كلفنا الامر دماءنا و أروحنا ."

ملؤها الاجلال و التقدير هى تلك النظرة التى منحها محمود شعيب للمقدم ابراهيم ثم اتسع ثغرة عن ابتسامة رضا
-" حسنا ايها الرجال يمكنكم الانصراف الى مواقعكم وسوف تصلكم الاوامر فى حينها.."
بمزيج من السعادة و الحماس نهض الرجال من أماكنهم متوجهين الى مواقع الزحف و القتال
-"انتظر قليلا يا ابراهيم."
نطقها شعيب حينما هم ابراهيم عبدالتواب بمغادرة المكان ،نظرة مشفقة حنونة وجهها شعيب نحو ابراهيم
- " من يوم السادس من اكتوبر و حتى اليوم وانت لم تحظ بقسط وافر من النوم و قد بدا عليك التعب واضحا جليا...كنت أتمنى لو أنك تغفوا ساعة او ساعتين و سوف أقوم أنا و مقلد و بقية الرجال بمتابعة الكتيبة."

-"لا عليك يا سيدى، فما أطال النوم عمرا و ما قصر فى الاعمار طول السهر."

قالها ثم أدى التحية العسكرية لقائده باحترام ثم غادر الملجأ....تأمل تلك الحصون القوية والملاجئ على ضوء القمر.

-" حضرة المقدم ابراهيم. "

انتزعت تلك الجملة ابراهيم من تأملاته و أفكاره فتوجه الى قائلها، أنه عبدالرازق شامه ذلك المقاتل الصلد العنيد ،

-" سيدى لقد طرحتم فى عمليات الكتيبة دفع دوريات ليلية للإغارة على قوات العدو و قد اخترت خمسة جنود متطوعين للقيام معي للقيام بهذه المهمة النبيلة...

صمت لحظات ثم هتف بصوت أقرب الى التوسل و الرجاء:

-" أرجوك أن تمنحني هذا الشرف."

تأمله ابراهيم لثوان و قد أدهشته هذه الألفة بين رجاله وبين الموت والشهادة لقد تخطى الامر حاجز الألفة بل وصل الى مرحلة العشق و الوله، فى الوقت الذى يبحث فيه المدنيين عن ملابس العيد و يلهثون خلف الجمعيات الاستهلاكية من أجل بعض الطعام، يسعى هؤلاء خلف الشهادة و بإصرار. لكم الله يا ابناء الشهداء.

و أمام إصرار البطل لم يجد ابراهيم بدا من تكليفه بالمهمة.

-"حسنا لتكن أنت أول قائد لدوريات الموت الليلية."

و كأن ابراهيم قد منحه هدية ثمينة هتف شامة
-"أشكرك شكرا جزيلا يا سيادة المقدم"
نطقه ثم انطلق بصحبة جنوده الخمسة فى حماس منقطع النظير..

-" هل أبلغت قيادة الجيش بأخر تطورات الوضع الميداني ؟"

نطقها ابراهيم عبدالتواب مخاطبا بها سعد أنور ذاك الذى رفع جهاز المسماع من فوق أذنيه ثم أجاب فى احترام

-" تمام يا أفندم. لقد حدث بالفعل... "

تأمل ابراهيم ذلك الملجأ الحصين، وذلك المكتب الفخم والذى خلفه اليهود من ورائهم...تلك الملابس النظيفة، وجبات التعيين الفخمة، تلك الخريطة

هناك على الحائط و التي حوت صورة مكبرة لمدينة السويس التقطتها طائرات الاستطلاع اليهودية .

-" هذه الصورة مهينة جدا. "

نطقها سعد حينما لمح تعلق بصر ابراهيم بهذه الصورة المكبرة والتي تعرض أدق تفاصيل مدينة السويس حتى أسطح المنازل

-"مهينة لمن؟"

نطقها ابراهيم متسائلا

-"مهينة لليهود بالطبع لانهم مع كل هذه الامكانيات فروا كالجرذان الخائفة."

-"صدقت...و الان دعنا نراجع و نطالع التعليمات القتالية الواردة من قيادة الجيش.."

قالها ابراهيم عبدالتواب ثم انهمك مع سعد فى مطالعة التعليمات ، لم يدر كم مر عليه من الوقت الا انه بعد انتهى من العمل غادر نقطة الاشارة مواصلا تفقد الرجال

حاول جاهد أن يسيطر على ذلك القلق الذى عصف بوجدانه حينما تناهى الى سمعه صوت الطلقات القادم من بعيد شعر بالخوف على عبدالرازق و من معه من الرجال...من جديد لفت انتباهه محمد نور الدين واقفا فى خندقه منهمكا فى تدوين مذكراته و يومياته..

-"يا إلهى و كأنك تجلس فى قاعة المحاضرات بكلية العلوم."

نطقها ابراهيم عبدالتواب مداعبا فتوقف نور الدين عن الكتابة و أطلق تنهيدة حارة

-" لقد ذكرتني بتلك الايام الجميلة حينما كنت طالبا فى كلية العلوم.."

بشيء من الحياء هتف ابراهيم

-" هل تسمح لي أن أقرأ شيئا من يومياتك؟"

انفرجت اسارير محمد نور الدين و بشيء من السعادة مد دفتر مذكراته لإبراهيم

- "بكل سرور يا حضرة القائد كم يسعدني أن يكون السيد قائد الكتيبة هو أول قرائي."

تناول ابراهيم الدفتر ليقرأ فيه

" انها ليلة العاشر من اكتوبر،يا لها من ليلة قمرية جميلة ...يرسل القمر أشعته الفضية لتعانق رمال سيناء الحبيبة ..أسمع صوت الطلقات والمدفعية القادم من بعيد...الوضع هنا هادئ الى حد ما أخشي أن يكون هذا هو الهدوء الذى يسبق العواصف "

-"يا لك من أديب ملهم ولكن عندى لك اقتراح بسيط."

نطقها ابراهيم عبدالتواب مداعبا فهتف محمد فى سرور

-" تفضل يا حضرة القائد كلى آذان مصغية."

نظر اليه ابراهيم بجدية مفتعلة قائلا

-" اقترح أن ترسل يومياتك الى أحد علماء المصريات ليقوم بترجمتها من الهيروغليفية الى العربية فخطك اقرب ما يكون الى اللغة الهيروغليفية."

انطلقت ضحكة صافية من صدر نور الدين بادله اياها عبدالتواب ثم

واصل مسيره للاطمئنان على الرجال...

لفت انتباهه بشدة ذلك المشهد بعض الدبابات البرمائية العالقة فى الارض الرخوة بجوار القناة

-" أظن أننا قد قابلنا مثل هذه المواقف من قبل يا جابر. "

نطقها ابراهيم موجها جابر نحو الحل الأمثل لهذه المشكلة فرد عليه جابر فى ثقة

- تمام يا افندم و سوف نطبق ما تعلمناه أثناء التدريب"

لم يكد ينتهى جابر من عبارته حتى وصل بعض الجنود يحملون أعمدة خشبية طويلة من تلك التى تستخدم لحمل اسلاك التليفون وما ان وضعوها تحت جنزير الدبابة حتى بدأت الدبابة فى التحرك و الخروج من الوحل.

تنهيدة حارة خرجت من صدر ابراهيم ثم ربت على كتف جابر

-" أحسنت صنعا يا جابر."

نطقها ابراهيم عبدالتواب ثم سار باتجاه الشرق لكى يطمئن على بقية الرجال .. تأمل الدشمة الرئيسية و التى تقف فى شموخ لم يهزمها سوى عزيمة الجندي المصري الباسل .....تناهى الى سمعه اصوات الطلقات، تصاعد القلق فى نفسه تجاه شامه و من معه من الرجال

-" أرى أنه من الخطر أن تسير مكشوفا هكذا تحت ضوء القمر. عليك أن تسير داخل الخنادق."

نطقها سعد مشفقا على قائده والذى انتزعته الجملة من افكاره و شروده

-"أشعر بالقلق فقد تأخرعبدالرازق و من معه من الرجال.."

-"لا تقلق فكل شيء بقضاء الله.."

قالها ابراهيم عبدالتواب ثم انطلق متوجها الى الخطوط الامامية حيث مقدمة النقطة....

-" مرحبا حضرة القائد لقد أضاء مجيئكم خندقنا المتواضع ..كنت أود أن أقدم لك أسيرا يهوديا و لكنهم جبناء يرحلون صوب الشرق ليلا كما تعلم ."

لم يستطع ابراهيم ان يكتم تلك الضحكة التى انفجرت صافية قوية حينما سمع تلك الدعابة المرحة والتي لا يخلوا منها كلام ابناء الاسكندرية

-" هل الامور على ما يرام لديكم يا سامى....."

-" كل شيء على ما يرام و....."

بتر سامى عبارته علي نحو مباغت بصورة أفزعت ابراهيم عبدالتواب فتوجه بناظريه الى تلك النقطة التى جذبت انتباه سامى .....من بعيد رأى عدد من الجنود يقتربون...فشل فى التعرف عليهم بعد رحيل البدر... بصورة لا أراديه تحفزت جميع خلايا جسده.

-" حذار ان تطلق النيران يا سامى فهذه دورية عبدالرازق شامه."

نطقها ابراهيم و قد لاحظ تحفز سبابة سامى على الزناد

-"دورية عبدالرازق مكونة من ست أفراد و هذه المجموعة مكونة من سبعة أفراد..

قبل أن يرد ابراهيم عبدالتواب ارتفع أزيز جهازه اللاسلكي فتناوله فى عجلة ثم وضعه على أذنه منصتا

-"رقم سبعة ينادى...تمت الدورية بنجاح نرجوا عدم اطلاق النيران.."

زفرة حارة ندت من صدر ابراهيم عبدالتواب

-" انه عبدالرازق شامه لا تطلق النار يا سامى."

قالها ثم ضغط على أحد أزرار اللاسلكي متوجها بحديثه لأفراد الخط الأمامي قائلا:

- "رقم سبعة قادم لا تطلقوا النيران "

بشيء من اللهفة و الترقب تأمل عبدالتواب رجاله القادمين من رحم الظلام...من بعيد بدوا له كأشباح أسطورية استطاعوا أن يشقوا جدران الظلام ليصنعوا لنا فجرا جديدا.

-"تمام يا افندم... تمت الدورية بنجاح ولقد أحضرنا معنا هذا الأسير."

نطقها عبدالرازق فى قوة مشيرا الى ذلك الأسير الإسرائيلي و الذى بدا عليه الذهول و الذل و الهوان.....شعور بالرضا والاطمئنان غمر قلب ابراهيم و وجدانه فنظر الى عبدالرازق

- "عليكم بتسليم الاسير للمؤخرة و بعدها أود أن أعرف منك و من رجالك كل ما قابلتموه و رأيتموه بكل التفاصيل."

انفرجت اسارير عبدالرازق ثم شد قامته مؤديا التحية العسكرية فى ثقة

-" تمام يا افندم."

قالها ثم انطلق للقاء رفيقه سعد

-"ابوالسعود."

نطقها عبدالرازق منبها صديقه العزيز لوصوله سالما

قفز سعد كالأطفال من فرط سعادته

-" الشاي ع النار و الجار للجار يا عبده."

-"جهز لنا السحور قبل الشاي فأنا أتضور جوعا."

نطقها عبدالرازق فى مرح ثم جلس على الرمال فى مواجهة سعد

-"لقد أعددت لك سحورا فاخرا فلدينا مخزن تعيينات عامر يكفينا شهرين علي الاقل."

-"دوم الحال من المحال يا صديقي."

تلاشت الابتسامة من ثنايا وجهه فهتف به سعد مطمئنا:

-" فتمتع بالصبح ما دمت فيه لا تخف أن يزولا حتى يزولا."

انطلقت ضحكة قوية من حنجرة عبدالرازق

-" و كأنى أجلس مع رب السيف و القلم*..."

نظر اليه سعد و قد عصف به الوجد و الشوق

-" أكثر ما تهون به المصاعب هو الصحبة الجميلة."

تبسم عبد الرازق قائلا:

-"و لما لا ألم يقل فينا رسول الله صلى الله (إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم في رباط إلى يوم القيامة)

زفرة حارة خرجت من صدر سعد محملة بالشوق و الحنين فبتر عبدالرازق ابتسامته قائلا:

- "هون عليك يا صديقي."

قبل أن ينجرف سعد مع تيارات الشوق و حنينه لزوجته و أولاده جذب عبدالرازق دفة الحديث الى اتجاه اخر بمنتهى الذكاء قائلا:

- "كم كنت أتمنى لو أنك كنت معي فى هذه الدورية و رأيت مدي الهلع الذى أصاب الإسرائيليين حينما فاجأناهم بالهجوم...لقد تمكنا من أسر أحد الجنود.."

تهللت أسارير سعد فقد نقله الخبر من قمة الحنين الى قمة الظفر فهتف قائلا

-"لقد ذكرتني بذلك البطل الأسطوري ابراهيم الرفاعي والذى استطاع أن يأسر جنديا إسرائيليا من شرق القناة و يعبر به القناة فى وقت الاستنزاف.."

صمت عبدالرازق و قد شرد بفكره و بصره نحو الشرق فهتف به سعد قائلا:

- "ما بك يا رجل لما هذا الصمت؟"

كالمسحور قبض عبدالرازق قبضة من الرمال ثم بسط يده لتنسكب تلك الرمال من بين يديه قائلا:

-" ترى هل سترى هذه الرمال من يعشقها كعشقنا لها؟"

وضع سعد يده على كتف صديقه و نظر فى عينيه

- "لا تخف يا صديقي فهذه الأرض ولود لا تكف أبدا عن إنجاب الشجعان و سوف نرى و نحن فى حواصل الطير الخضر شبابا فى عمر الزهور استشهدوا دفاعا عن هذه الأرض.

****

هناك و فى ذلك المنزل الريفى البسيط.... تأملت ذلك الضوء المنبعث من الانتفاخ الزجاجى لمصباح الكيروسين كل شيء

من حولها يوحى بالبساطة تلك الجدران الطينية ذلك السقف المضفور من عيدان الذرة الجافة....

لم تمنعها تلك الضجة التى أحدثها وابور الكيروسين من الابحار مع ذكرياتها...، تأملت تلك الفتاة الريفية الجميلة والتي أوشكت على الانتهاء من صنع كوبين من الشاي ،قدمت أحدهما لتلك العجوز...

بطريقة لا إرادية تحسست الفتاة بطنها و كأنها تلتمس من قاطنه الجديد شيئا من الأنس و الحنان فبعد رحيل سيد وهدان الى الميدان لم يعد لها فى الوجود سوى الله ثم سيد و أمه تلك العجوز.....ما بين الاثنتين جرح مشترك...فكلتاهما موتور، فتلك الفتاة فقدت أبيها و عائلها الوحيد فى نكبة يونيو، و العجوز فقدت ولدها الأكبر فى الحرب ذاتها... فى مخيلتيهما ما زالت صورته راسخة قوية...

تحسست العجوز جبهتها كأنها تلتمس شيئا من الطمأنينة من تلك القبلة التى طبعها وليدها قبل رحيله الى الميدان تنهدت الصبية حينما تذكرت نظراته العطشى المفعمة بالرجاء و الحنين، شيئا ما بداخلها يخبرها أنه قد لا يعود.....كم أنت غالية يا رمال سيناء!! كان بإمكانه أن يحصل على اعفاء من الخدمة العسكرية كونه أصبح الابن الوحيد العائل لأمه الأرملة،الا أنه التحق بالجيش طواعية من أجل سيناء الحبيبة و من أجل الثأر و استرداد الأرض و الكرامة ... حينما تعالى و ارتفع صوت اذان الفجر رفعت عينيها للسماء و أطلقت قلبها و لسانها بالدعاء...

****

على ضوء النجوم الباهت الخافت تأمل ابراهيم ذلك السور السلكي المحيط بحقل الألغام و الذى نصبه اليهود بعد النكسة...

-"كم لدينا من الالغام؟"

نطقها ابراهيم عبدالتواب متسائلا و هو يفحص حقل الالغام الذى أحاط به اليهود النقطة والذى يقع على امتداد خمسمائة متر مسورة بسلك شائك..

-"لدينا كمية كبيرة من الالغام يا سيدى. ألغام مضادة للدبابات و عدد من الصناديق المضادة للأفراد."

نطقها ضابط المهندسين العسكريين فى ثبات فهتف به ابراهيم قائلا

-" أريدك أن تنشئ حقل الغام من الدرجة الاولى بامتداد ثلاث مئة متر باتجاه الشرق و أن تترك فيه طرقات محددة معلومة لقواتنا، أريدك أن تستخدم كل ما لدينا من الغام، فقط عليك أن تترك لكل مقاتل لغمين فقط. عليك أن تنتهى من الأمر قبل شروق الشمس."

-"تمام يا أفندم. "

نطقها فى حزم ثم بدأ هو و رجاله فى تنفيذ الأمر.....

على ضوء الفجر الوليد أخذ ابراهيم يراقب الرجال و هم ينفذون الأمر بجرأة و إقدام و قبيل بزوغ قرص الشمس الوليد كان الرجال قد أتموا مهمتهم بنجاح.

-" هذه خريطة بأماكن الالغام و كذلك الطرق الآمنة.."

نطقها ضابط المهندسين العسكريين و هو يقدم تلك الخريطة لإبراهيم عبدالتواب

-"أحسنتم أيها الرجال، و الان عليكم العودة لخنادقكم..."

ما إن نطقها ابراهيم عبدالتواب حتى تعالى صوت جهاز اللاسلكي المرابط على خصره فضغط على زر التشغيل قبل أن يضعه على أذنه.

-" هناك سرية دبابات معادية تقترب...على جميع القوات اتخاذ الأوضاع الدفاعية المناسبة."

وصلت تلك الرسالة من فرد الاستطلاع فرد عليه ابراهيم قائلا

- "علم و جارى اتخاذ اللازم."

ما ان نطقها ابراهيم حتى هرع الى خندقه، واضعا منظاره المعظم أمام عينيه

-"على جميع القوات اتخاذ الأوضاع الدفاعية المناسبة."

تردد صوت المقدم ابراهيم عبر أجهزة الاتصال فتطلعت العيون نحو الشرق.....

على امتداد الأفق بدت الدبابات الإسرائيلية و كأنها مجموعة من العقارب السوداء تزحف نحو الغرب..

-"حان وقت العمل يا رفيق."

نطقها ابراهيم السكرى فى مرح و هو يربت على سلاحه المضاد للدبابات فابتسم محسن علام متابعا تقدم الدبابات نحوهم...

-"عشرون دبابة و ناقلتين للجند تتقدمهم دبابة القيادة...أراها تتهادى كالبطة على صفحة مياه القناة..

انها تقترب....تقترب."

نطقها سامى حجازي عبر جهاز الاتصال.

-"و كأنك معلق رياضي تحكى لنا وقائع بطولة رياضية."

نطقها ابراهيم عبدالتواب باهتمام و جدية فرد عليه سامى حجازي قائلا

-" و لما لا يا سيدى انها بطولة البطولات...هل تسمح لى يا سيدى أن أبدأ الحفل بسم الله..دعني أرحب بدبابة القيادة"

- ***"هي لك توكل على الله."***
- ***"انها تقترب فى خط متماوج،انها تكاد أن تفلت و.....الله أكبر...الله أكبر. لقد أصابتها قذيفتنا بنجاح."***

ارتج الحصن بالتكبير فهتف

-" ابراهيم عبدالتواب أحسنت أيها البطل."

و قبل أن يعقب سامى هتف ابراهيم عبر جهاز الاتصال:

-" أسامه عبدالله عليك بالانتباه...فهناك دبابة تحاول اختراق الجانب الأيسر للحصن."

-" هذا لن يكون الا على جثتي يا سيدى.."

قالها أسامه و قد ضاقت عيناه مركزا على ذلك الدبابة القادمة فى جرأة و إصرار

- " و ما رميت اذ رميت و لكن الله رمى."

نطقها أسامه و هو يضغط على زناد قاذفه المضاد للدبابات والموجه بالسلك و انطلق المقذوف ....صوت أشبه بالزغاريد صاحب انطلاق المقذوف ،و كأنه يسرع الخطا شوقا لاقتحام تلك الدبابة الإسرائيلية.....

-"الله أكبر"

نطقها أسامه عبدالله فى ظفر فتجاوبت معه أرجاء الحصن بالتهليل و التكبير....

-"اللغة."

نطقها قائد ثان السرية الإسرائيلية فى حنق و هو يشاهد ما حاق بدبابة القيادة و دبابة الميسرة

-اطلقوا النيران

نطقها قائد ثان السرية الإسرائيلية فى جنون فأخذت الدبابات تطلق قذائفها بغزارة...

من تلك الحفرة تأمل سيد وهدان

تلك الدبابة،هى لحظات فقط تلك التى بينه و بين الشهادة...

أغمض إحدى عينيه و ركز بالأخرى على تلك الدبابة ،حينما وقع بصره على نقطة المنتصف ما بين الجنزير و البرج ضغط على الزناد، وانطلقت قذيفته نحو الهدف المنشود

-"الله أكبر لقد فعلتها يا رجل"

وصله صوت المقدم ابراهيم عبدالتواب عبر جهاز الاتصال مفعما بالسعادة..

فى حنق و غيظ تأمل قائد القوات الإسرائيلية مسار المعركة

- ***"لقد فقدنا ثلاث دبابات من بينها دبابة القيادة.. أطلقوا النار بغزارة"***

ما ان نطقها حتى انهمرت القذائف على النقطة كالمطر.

-" أيها الجبناء."

نطقها ابراهيم السكرى فى غضب حينما انفجرت تلك الدانة على بعد أمتار من مخبئه ....

-"حسنا أيها الحقير سوف أعلمك كيف تكون إصابة الأهداف."

قالها ثم ضغط على زناد القاذف ..

تأمل مقذوفة المندفع... ثوان و ارتطمت القذيفة بالهدف.

-"يا لها من كارثة."

نطقها قائد ثان السرية الإسرائيلية فى حنق حينما شاهد ما حاق بالدبابة

ثم انحرف بدبابته فى عنف و حدث ما لم يكن فى الحسبان....اقتحمت دبابته حقل الالغام المسور

-"اقفزوا خارج الدبابة فقد دخلنا فى حقل ألغام."

نطقها فى فزع و ارتياع و هو يقفز من الدبابة ومن خلفه بقية طاقمها و تركوها تسير بمفردها بين الألغام

-"محسن علام ناقلة الجند فى محيط نيرانك تعامل مع الهدف."

تلقى محسن الأمر من قائده بجدية و التزام.

-"علم و جارى عمل اللازم. "

نطقها محسن علام و هو يطلق وابل من النيران نحو ناقلة الجند و التى أرتبك قائدها و استدار بها فى عجلة ولم يستطع السيطرة عليها فاختل توازنها و انقلبت رأسا على عقب.... جنديان فقط هما من تبقى من قوة الناقلة قفزا و اختبأ خلف أحد الكثبان الرملية.

-" على جميع القوات الانسحاب و العودة الى القاعدة."

تردد ذلك النداء داخل دبابات القوات الإسرائيلية فانسحبت بطريقة تكتيكية مدروسة.

تأمل ابراهيم عبدالتواب تلك الدبابة التى فر طاقمها و تركوها فى وضع الحركة

-"إما تصطدم بلغم فتنفجر أو ينفد وقودها فتتوقف."

نطقها الملازم صبري كاسح مشيرا الى تلك الدبابة و قد لاحظ تعلق بصر ابراهيم بها فهتف به ابراهيم

-"دعك منها و الان هيا بنا نقوم بحصر الشهداء و الجرحى والغنائم و الخسائر."

نطقها ثم انطلق مع كاسح للاطمئنان على الرجال.

****

و كأن علي رؤوسهم الطير اصطفوا حول تلك المائدة المستطيلة بانتظارها. بعد لحظات و بخطوات منكسرة تقدمت تلك السيدة لتجلس علي رأس المائدة. بدا عليها الحنق و الضيق. تأملت مطأطئ الرؤوس و قد بدت الذلة الانكسار علي وجوههم. فشلت في كظم غيظها فانفجرت فيهم كالبركان :

-"أين أسطورة الجيش الذي لا يقهر؟ اين النابلم؟ أين الحصون؟ اين الأسلحة الحديثة؟ اين الضجة الاعلامية التي ملأنا بها أسماع العالم زورا و بهتانا."

وجه موشيه ديان ازداد اكفهرارا و شؤما وهتف في صغار :

-"من كان يتخيل ان يفعل المصريون هذا. هذا محال."

هتف رئيس الاركان دافيد اليعازر :

-" نحن نحارب مردة من الجن. لا يمكن ان يكون هؤلاء بشر. "

هتفت به غاضبة:

-" هؤلاء لم يحظوا بمعشار الترفيه الذي حظي بها جنودنا و لا معشار الأسلحة الحديثة التي تركها رجالنا و انسحبوا كالجرذان. "

هتف نائب رئيس الأركان العامة يسرائيل طال:

-" هؤلاء رجال يعشقون تراب أوطانهم. ذابوا فيه عشقا لا يعنيهم ترفيه. قدموا مصر علي كل شيء."

اتسعت عيناها في غيظ جلي ثم طرقت بقبضتها سطح المائدة في قسوة :

-" و كأننا قد جئنا لنقدم التحية لجيشهم العظيم الذي دحرنا و جعلنا أضحوكة العالم. أليس لديكم ما نحفظ به ماء وجوهنا. "

ساد الصمت بينهم لحظات ثم هتف ديان

-"نقطة واحدة قادرة علي تبديل مسار الحرب . "

قفزت علامات الاستفهام علي وجوه الجميع فهتفت

-"عن أي نقطة تتحدث؟ "

-" كبريت. "

ساخرة هتفت

ـ" تقصد تلك النقطة التي هربتم و تركتموها خلفكم. "

تجاهل نبرة السخرية في صوتها متابعا :

-" هذه النقطة لها اهمية استراتيجية كبيرة. فالمسافة بين الشطين ليست كبيرة مما يتيح لنا اقامة جسور و كباري من

خلالها نستطيع الدفع بالمركبات و الافراد. استرداد كبريت يا سادة يعني انتصارا ساحقا مبينا. كما أن هذه النقطة أصبحت معزولة تماما و..."

قاطعه العازار محتدا

-" ما أسهل القول و التمني يا سيد ديان. "

كلماته جذبت السيدة اليه فالتفت اليه باهتمام

-" هل من توضيح؟ "

-" هؤلاء الذين اقتحموا الحصن ليسوا بشرا عاديين انهم أشبه بالمردة. اذا كانت المؤسسة العسكرية المصرية كلها أسود فهؤلاء خارقون و مستعدون للقتال بأيديهم العارية و أظافرهم. هل تسمع يا سيد ديان؟ انهم متمسكون بتراب وطنهم و لن يتخلوا عنه مهما كلفهم الأمر. "

بدا الغضب علي وجه ديان فهب من مكانه

-" و كأنك معجب بما فعله هؤلاء و شامت في دولتنا. "

ارتفع صوت العازار

-"علينا الا نخدع انفسنا يا سيد ديان فنحن لسنا الجيش الذي لا يقهر لقد محت العسكرية المصرية هذه الصورة تماما. "

سكت لثوان و قد بدا الذهول و الانكسار علي ملامحه

-"لقد رأيتهم و هم يحاربون. لا يمكن ان يكون هؤلاء بشر... "

بشيء من الشفقة أشارت اليه السيدة مائير ان يلزم الصمت ثم هتفت مخاطبة يسرائيل

-" هلا أدليت بدلوك؟ "

-" كلام السيد ديان عن أهمية النقطة حقيقي و مؤكد و هناك ما هو أهم من ذلك.."

صمت لثوان كي يري أثر كلامه علي مستمعيه ثم واصل

-" هذه النقطة تتحكم في جميع مداخل مدينة السويس و لكن.."

غاضبة هتفت

-"و لكن ماذا؟"

-"من المحال ان يتخلى الرجال عن حبة رمل واحدة. "

-" هل لك ان تخبرني بما في جعبتك من معلومات."

متوجهة بكلامها لمدير الاستخبارات العسكرية ايلي زاعيرا و الذي انبري شارحا

-" القوات المصرية الموجودة بالنقطة عددها لا يتجاوز الثلاثمائة فرد. اما عن تسليحهم فهو لا يقارن بتسليح جيش اسرائيل بالإضافة الي ما غنموه من غنائم عقب فرار جنودنا. "

صمتت السيدة مائير لثوان مفكرة و كأنها تتحدث الي نفسها

-"نقطة استراتيجية استردادها كفيل بتغيير مسار الحرب و قلب الموازين لصالحنا. "

صمتت مجددا ثم توجهت بحديثها للجميع في قسوة

-" علينا ان نسترد هذه النقطة بأي طريقة و مهما كلفنا الأمر. دكوها علي رؤوس من فيها. اضربوها بكل انواع الأسلحة. اقطعوا عنها المؤن و الزاد و العتاد. لو استطعتم ان تمنعوا عنهم الهواء فلا تترددوا. افعلوا اي شيء لاسترداد هذه النقطة. هل تفهمون؟"

بدت القسوة علي وجه ديان ثم هتف في وحشية

-" اذا كان هؤلاء الرجال متمسكون بهذه الأرض فلنحقق لهم مرادهم و لندفنهم فيها. "

****

من منا لم يجرب ذلك الشعور...حينما تشترى حلة جديدة لم ترتديها من قبل. شعور بالشوق و اللهفة قد يدفعك الى ارتداءها مرات متخيلا نظرات الاخرين اليك و انت ترتديها.....الأمر يبدو مختلفا فيما يتعلق بالأكفان....البعض منا قد تنتابه قشعريرة حينما يفكر فى الأمر. فئة أخري من الرجال ينظرون الي الأمر بصورة مغايرة. انهم رجالات جيش مصر علي مر الأزمان.

- "يا له من كفن جليل."

ترددت هذه الجملة فى عقل ابراهيم عبدالتواب و هو يتأمل ذلك العلم الذى احتفظ به لنفسه والذى أوصى أن يكون كفنه فى حال استشهاده. تأمل ألوانه الثلاثة الاحمر و الابيض والاسود ثم طواه برفق ليضعه أسفل فراشه الميدانى،تناول مصحفه ثم جلس على طرف الفراش ليقرأ آيات من كتاب الله، قبل أن يفعل ارتفع صوت جهاز الاتصال المرابط على خصره فوضع المصحف على الفراش ثم تناول جهاز الاتصال وضغط على زر الاستقبال.

-"وردتنا اشارة من قوات الاستطلاع يا افندم...هناك قوات معادية تقترب"

نطقها سعد أنور فى قوة فهتف ابراهيم قائلا:

-"بلغ جميع القوات على الفور ."

ما ان نطقها ابراهيم عبدالتواب حتى هب خارجا من مكانه متوجها للخطوط الأمامية...

-" من المعهود أن القوات الاسرائيلية لا تهاجم ليلا...ترى لماذا تهاجم فى هذا الوقت المتأخر من الليل؟"

تردد هذا السؤال فى نفس ابراهيم الا انه لم يجهد نفسه فى البحث عن اجابة بل استمر فى طوافه .

-"لا تقلق يا حضرة القائد فنحن مستعدون دائما لاستقبال الضيوف و الترحاب بهم."

نطقها سامى حجازي فى مرح و سرور فنظر اليه ابراهيم بجدية قائلا:

-" لا تتسرع فى اطلاق النار ....فقط عندما تصدر الأوامر."

-"تمام يا افندم."

خرجت حروف تلك الكلمات من فم سامى حجازي ممتزجة و معجونة بكل ما فى الكون من حب و مودة، أما ابراهيم فلم ينتظر طويلا.... غادر سامى و سريته للاطمئنان على بقية الرجال.....

-"فلتذكرني دائما بالخير يا سيدى ."

نطقها حسن ذلك الصعيدي الأسمر وهو يقدم ورقة مطوية لإبراهيم

-"أرجوك أن تسلم هذه لأمي."

بلا تردد تناول ابراهيم الورقة و وضعها فى جيب سترته ثم استمر فى طوافه للاطمئنان على قوات المقدمة و بعدها عاد الى خندق العمليات لإدارة المعركة.

-" قوة من المشاة الميكانيكي عبارة عن عشر ناقلات للجند مدعومة بشتى أسلحة الدعم...أرى القوات بوضوح فى المنظار الميداني انها تقترب. تقترب."

نطقها سامى حجازي بطريقته المعهودة و كأنه فى ميدان كرة القدم لا فى ميدان القتال فهتف به ابراهيم عبدالتواب متعجبا

- "يا إلهى و كأنى أتحدث الى شيخ المعلقين الكرويين كابتن محمد لطيف*.....حسنا كابتن سامى تابع المراقبة و أبلغني عندما تصل قوات العدو الى المرمى المؤثر لأسلحتنا."

-"يبدوا أنها ستكون سهرة رمضانية مثيرة."

نطقها محسن علام و هو يراقب تقدم القوات الاسرائيلية من خلال منظاره الميدانى..

-" هم يحاولون تطويق النقطة من جميع الاتجاهات، ولكن هيهات لن نعود للخلف خطوة خطوناها للأمام."

نطقها ابراهيم السكرى متحفزا وقد أغلق أحدى عينيه مركزا بعينه الاخرى[2] على احدى الدبابات من خلال منظاره الميدانى.

-"الان أيها الرجال..."

تدفق صوت المقدم ابراهيم عبر أجهزة الاتصال قويا حاسما..

---

[2] شيخ المعلقين الرياضيين **محمد لطيف**)23 أكتوبر - 1909 17 مارس1990)، لاعب كرة سابق بنادي الزمالك ومنتخب مصر لكرة القدم، كان يلقب بشيخ المعلقين

فانطلقت ألسنة النيران بغزارة صوب القادمين.
-" انها تتهادى على صفحة الرمال كأوزة برية فوق مياه البحيرة....يا لها من دبابة حديثة رشيقة."
داعبت كلمات سامى حجازى سمع ابراهيم عبدالتواب فتعجب بينه و بين نفسه.
-"من أى معدن قد هؤلاء الرجال؟"
تردد هذا السؤال فى نفس ابراهيم، و قبل أن يصدر عنه أي تعليمات هتف سامى حجازى
-" الهدف فى مرمى نيراني هل أطلق عليه النيران؟"
-" أطلق النار و لا تتردد. "
ما إن نطقها ابراهيم عبدالتواب حتى ضغط سامى على زناد القاذف وانطلقت القذيفة تشق عتمة الليل فى إصرار و.....
-"الله أكبر لقد أصبتها....لقد فعلتها."
تردد صوت سامى عبر أجهزة الاتصال فتداعت له جنبات النقطة بالهتاف و التكبير...
-" يجب أن نسحقهم هذه المرة."
نطقها قائد القوات الاسرائيلية فى غلظة ثم هتف عبر أجهزة الاتصال:
- "على جميع قوات المشاة الانتشار و محاصرة النقطة. "
ما ان نطقها حتى قفز جميع جنود المشاة و انتشروا حول النقطة، و بدأ النزال.
تحسس حسن ذلك اللغم المرابط على خصره...
-" نموت فى خنادقنا و لا نفرط فى حبة واحدة من رمال سيناء."

ترددت هذه الجملة فى نفس حسن وهو يشاهد هؤلاء المتسللين المستترين بجنح الظلام، عدل وضع بندقيته الالية من الوضع الفردي الى الوضع السريع و بدأ فى إطلاق زخات متواصلة من الطلقات ، تلك الصرخات βالقادمة من الشرق أضفت على روحه و نفسه فيوض من الطمأنينة.

-" يا لها من ليلة مثيرة."

نطقها ابراهيم السكرى كمن يخاطب نفسه و هو يتابع تلك الدبابة فى صبر.

-"حينما تسنح لك الفرصة أطلق النار ولا تتردد."

نطقها محسن علام متوجها بها الى ابراهيم السكرى و الذى هتف فى ثبات:

- ***"تمام يا افندم."***

شيء من القلق تسرب الى نفس ابراهيم عبدالتواب و هو يتابع انتشار القوات اليهودية حول النقطة.

- ***"الان يا حضرة المايسترو. "***

انه ذلك الجريء سامى حجازى،تردد صوته عبر أجهزة الاتصال فرد عليه ابراهيم

- ***"الان يا سامى."***

لم يكد ابراهيم عبدالتواب ينطقها حتى انفجر رحم الليل متمخضا عن زخات متتالية من الطلقات أحالت عتمة الليل و سكونه الى عرس محفوف بالزغاريد....

-"هيهات هيهات ايها الجبناء..."

وصل صوت سامى حجازى واضحا قويا لسمع ابراهيم عبدالتواب....من بعيد تراءت قوات العدو لسامى كأشباح سوداء تحتمى برداء الظلام ، بلا تردد صوب سامى نحو أحدهم وقبل أن تضغط سبابته على الزناد لفت انتباهه بشده تلك النقطة الحمراء التى استقرت على جبهته...فى جزء من الثانية أدرك سامى المكيدة فأحنى رأسه فى عجلة متواريا و مختبئا خلف ساتره الرملي...أذنه المدربة الواعية ميزت ذلك الصوت...انه طلقة صادرة من بندقية قناص...

-"يا لك من يهودي حقير..."

ترددت هذه الجملة فى عقل سامى و هو يتناول منظاره الميدانى المكبر بحثا عن مصدر تلك الطلقة الغادرة.....هناك خلف تلك التبة بدت له فوهة الموت واضحة جلية.....لم يأبه سامى لتلك الصرخات العالية التى امتزجت بأصوات الطلقات...كل ما يريده فقط هو ثغره ينفذ خلالها لخصمه...عليه أن يلزم أقصى حدود الحذر فأي خطأ قد يكون ثمنه هو حياته، أعاد الكره مرات و مرات فقط فى تلك المرة لمح كلاهما رأس الاخر واضحة جلية و ضغط كلاهما على الزناد..

نشوى غريبة تلك التى يشعر بها المحارب فى ميدان القتال حينما يتمكن من خصمه...يتجاوز الأمر حدود الموت و ما يرتبط به من مشاعر حينما يتعلق الأمر بحمى الأوطان...

-"الى الجحيم أيها الوغد."

نطقها سامى حينما تأكد أن طلقته قد أصابت هدفها المنشود..

-" هيا إقتربى أيتها الاوزة السمينة. "

ترددت هذه العبارة فى نفس ابراهيم السكرى و هو يلاحظ اقتراب تلك الدبابة الحديثة. للوهلة الاولى خيل إليه أن قائد الدبابة يراه و يسدد مدفع الدبابة نحوه. إنها النهاية الحتمية لأحد الطرفين بلا شك....جزء من الثانية هي تلك الفترة ما بين الموت و الحياة،فى خلال ذلك الجزء من الثانية ضغط السكرى على زناد قاذفة و... انطلقت القذيفة فى عجلة كما لو كانت تشتاق لقلب الدبابة....

- "يا لك من بطل صنديد .....أحسنت الرمي يا سكرى."

نطقها ابراهيم عبدالتواب عبر جهاز الاتصال مهنئا ابراهيم السكرى ذاك الذى هتف قائلا:

-" الله اكبر و لله الحمد."

-"أحسنتم أيها الرجال.."

نطقها ابراهيم عبدالتواب فى سرور و هو يشاهد انسحاب القوات الإسرائيلية من حول النقطة بعد أن تكبدوا خسائر فادحة بعد معركة استمرت لساعات.

-" هناك أمر ما يحيرني يا ابراهيم."

نطقها مقلد فى حيرة فهتف به ابراهيم قائلا:

-" ما الامر يا مقلد؟*

- لقد استشهد ..المجند حسن و هو متمسك ببندقيته الاليه بكلتا يديه ولم نستطع انتزاعها منه تمهيدا لدفنه.

-" لا تحرموه رفقه سلاحه ادفنوه فى رمالها بسلاحه."

****

-"ما هذا الهراء بحق الجحيم.."

نطقها شموئيل غونين* قائد القيادة الجنوبية للقوات الإسرائيلية و هو يشاهد عبر منظاره الميدانى ما يحدث فى كبريت.... فهناك و فى قلب النقطة راح الرفاق يتبادلون التهاني. لم يستطع ان يميز بين أي منهم. تأمل المشهد مركزا ببصره في دهشة. أزاح المنظار الميدانى من فوق عينيه مناولا إياه لقائد قوات الحصار ثم هتف قائلا:

-" استمروا فى حصارهم و امنعوا عنهم الامداد والدواء....امنعوا عنهم كل شيء.....هل تفهم..لو استطعتم أن تمنعوا عنهم الهواء فلا تترددوا.."

صمت لحظات و هو يمعن النظر فى وجهه قائلا:

- "يجب أن نسترد هذه النقطة بأي ثمن. هل تفهم؟..بأي ثمن!!"

الفصل الثالث

(حصار)

-" انه اكتشاف رائع يا سيدى."

نطقها صبري هيكل فى سرور متوجها بها الى ابراهيم عبدالتواب و الذى ابتسم قائلا:

-" يا الهى و كأنى أقف أمام هوارد كارتر *4*

تنحنح سعد أنور قائلا:

-"عذرا فأنت لست أمام هوارد واحد بل هوران فأنا شريكه فى هذا الاكتشاف المثير."

ليس لأحد أن يصدق أو يتخيل تلك الروح المعنوية العالية التى يتمتع بها المصريون فقد تبسم ابراهيم عبدالتواب قائلا:

- "وهل اكتشفتما قبر الاسكندر الاكبر؟ أم ماذا يا ترى؟"

نظر اليه صبري هيكل بشيء من المرح الممتزج بالجد قائلا:

-" لقد اكتشفنا اكتشافا عظيما يجب أن تذكره كتب التأريخ العسكري.."

صمت لثوان وهو يقترب ليهمس فى أذن قائده

-" لقد اكتشفنا مخزنا للذخيرة بالقرب من النقطة.**

*4*هوارد كارتر هو مكتشف مقبرة توت عنخ امون و هى تعتبر من اعظم اكتشافات القرن العشرين

اتسعت عينا ابراهيم عبدالتواب واجتاحته مشاعر شتى من الفرح و الدهشة و السرور فهتف قائلا

-" أحسنتما أيها البطلان .... لدينا عربات النصف بوصة * و مخزن للذخيرة علينا ألا ننسي إرسال برقية شكر للجيش الإسرائيلي فقد هربوا وتركوا لنا من الأسلحة و الذخائر ما يكفى لقتالهم."

قالها ثم انخرط هو و رجاله فى ضحكة صافية عانقتها رمال سيناء فى حنان.

***

-"يا له من منظر بديع."

نطقها امين مقلد وهو يتطلع الى الشرق قبل شروق يوم السابع عشر من اكتوبر و الى جواره وقف ابراهيم عاقدا ذراعيه أمام صدره صمت ليقلب معطيات الموقف بينه و بين نفسه

- "لم تصلنا أى بلاغات عن هجمات برية هذا اليوم.....أظن أننا على أعتاب غارات جوية طاحنة."

نظر اليه مقلد قائلا:

- " أو ربما رضخ اليهود لوقف اطلاق النار."

هز ابراهيم رأسه نفيا ثم قال:

- "اليهود لا عهد لهم و لا ذمة و سيفعلون كل ما ما فى وسعهم لاسترداد سيناء."

مط مقلد شفتيه ثم هز رأسه قائلا:

-" هذا يعنى أنهم سيخوضون معارك طاحنة لاستعادة هذه النقطة المفصلية..."

ابتسم ابراهيم ثم هتف قائلا:

-" يبدوا أننا على أعتاب بيرل هاربر*[5] جديدة يا صديقي. "

لم يكد ينطقها ابراهيم حتى تعالى صوت جهاز اللاسلكي المرابط على خصره فتناوله ضاغطا على زر الاستقبال ثم قربه من أذنه

-" وصلتنا إشارة من قوات الاستطلاع تفيد بتحرك سرب من الطائرات للهجوم علينا."

إنه سعد أنور قائد سرية الإشارة

-" حسنا أبلغ جميع السرايا باتخاذ اللازم."

-"علم وينفذ يا افندم."

ما هي الا لحظات حتى تناهى الى سمع الجميع ذلك الضجيج المدوي والذى لا يدرك حجم بشاعته سوى من سمعه فى الميدان...

---

[5] [5] هي غارة جوية مباغتة نفذتها البحرية الإمبراطورية اليابانية في 7 ديسمبر 1941 على الأسطول الأمريكي القابع في المحيط الهادئ في قاعدته البحرية في ميناء بيرل هاربر بجزر هاواي

هناك فوق أحد السواتر الرملية جلس عصام هلال مستقبلا الشرق مبتسما كمن يشاهد عرضا مثيرا فى أحد دور العرض.

-" لا ريب أنك قد أصابك الجنون...انزل و استتر خلف الساتر ايها ال...."

نطقها حمدى نجيب فى غيظ و هو يشاهد عصام هلال جالسا على الرمال كمن يسعى للانتحار.

-"واحد...اثنان....ثلاثة.....اربعة."

راح عصام يحصى سرب الطائرات المهاجم. تأمل أمطار الموت التى تسقطها تلك الغوادر محاولا احصاء عدد القذائف المتساقطة ...اتجهت الطائرات صوب الغرب ثم تلاشت و ذهب ضجيجها لدقائق ثم عادت للظهور من جديد. طلعة جوية كل خمس دقائق مئات الاطنان من المتفجرات غطت ارجاء النقطة بالرماد الاسود الكثيف.

فى المساء اجتمع الرجال فى ملجأ القيادة.

-"يبدو أنهم عازمون و مصرون على استرداد النقطة."

نطقها العميد شعيب فى حنق فى ملجأ القيادة وهو يقوم بفرد خريطة على تلك المائدة الميدانية و التى أحاط بها بعضا من رجاله فهتف ابراهيم عبدالتواب فى إصرار و الله لو قاتلناهم بالأسلحة البيضاء فلن نترك لهم النقطة.

-"لقد تفحم مخزن التعيينات بالكامل."

نطقها الضابط عصام قائد فصيلة المدفعية بشيء من الأسي فهتف سعد انور متابعا

- "و تحطمت شبكة الاتصالات السلكية و اللاسلكية."

-"نحن هنا فى هذه النقطة."

قالها شعيب وهو يشير بسبابته الى نقطة على الخريطة، تعلقت عيون الرجال بالخريطة فى اهتمام فتابع قائلا:

-" و أقرب نقطة تابعة للجيش الثالث الميدانى هنا."

قالها منتقلا بسبابته الى نقطة اخرى فألتقط ابراهيم عبدالتواب طرف الخيط متابعا:

-" انها الفرقة السابعة مشاة."

-"أحسنت يا حضرة المقدم..*

نطقها شعيب ثم واصل :

-" سوف نقوم بإرسال اثنين من رجالنا راجلين يطلبان المدد و كل ما تحتاجه النقطة."

قالها ثم صمت لبرهة ليرى رد فعل الرجال من حوله اشرأب عنق حمدى نجيب و اتسعت عيناه و هاتفا فى حماس:

-" اسمح لي أن أقوم بهذه المهمة أنا و صديقي عصام هلال."

أشرق وجه عصام و هتف فى حماس:

-" هل لنا أن نبدأ على الفور."

-" لا ...هذه المهمة يجب أن تتم مع أول أضواء الصباح لعدة أسباب"

نطقها ابراهيم عبدالتواب ثم صمت لثوان مردفا :

-" السبب الاول هو أن تقوما بملاحظة قوات العدو المتمركزة على امتداد الطريق السبب الثاني هو احضار بعض الامدادات و الأدوية و اجهزة اتصال للكتيبة هذا بالإضافة الى ابلاغ القيادة بالوضع الميدانى للنقطة."

-" تمام يا أفندم"

بقوة و بالتزامن مع أداء التحية العسكرية هتف بها كليهما.

-" حسنا أيها الرجال .....فليوفقكم الله."

نطقها شعيب مشيرا لهم بالانصراف فغادرو جميعا النقطة و تركوه بمفرده.

-" يا له من دمار مرعب."

نطقها ابراهيم عبدالتواب فى أسى و هو يشاهد ما أحدثه الطيران بالنقطة ...فقد استمر قصف الطيران للنقطة من أول أضواء الصباح و حتى الغروب...واجهة الملجأ الرئيسية تحطمت من جراء القصف و سدت الاحجار مدخلها الرئيس..

-"يا لهم من جبناء ."

نطقها ابراهيم و هو يتأمل تلك الطبقة السوداء من الغبار و التى كست أرجاء النقطة.. هناك فى مؤخرة النقطة كان الجرحى..

- "انه ما زال حي.. انه فى غيبوبة. "

نطقها حمدى نجيب بعد أن أزاح أذنه من فوق صدر الطبيب محمد عبدالجواد المسجى على الرمال...تأمله ابراهيم فى شيء من الأسي و الحزن تلك الدماء الحارة التى خضبت شعره و جبينه، اقترب بأذنه متلصصا ،مرهفا السمع. أسعدته تلك النبضات الخفيفة، مر على جميع المصابين، أحدهم فقد معصمه آخر نالته إصابة بالغة فى جمجمته...

- *طبيب النقطة نفسه فى حالة حرجة."

-" تسع و سبعون مصاب، تنوعت إصابتهم ما بين الخفيفة و الخطيرة و المميتة....."

نطقها ابراهيم فى غضب

فنظر اليه شعيب ثم الى الرجال المتشبثين برمال سيناء رغم جراحهم الخطيرة ثم هتف فى شيء من الأسى:

-" لقد عرض علينا الصليب الأحمر اجلاء المصابين و الجرحى و نقلهم في مروحيات الي المستشفيات. "

أظن أننا أضعنا فرصة نادرة و ثمينة حينما رفضا هذا العرض."

-" أظن أن اسرائيل من وراء هذا الأمر و نحن لن نسمح لغريب ان يطأ هذه الأرض؟"

فى شيء من الاستسلام و اليأس هتف شعيب

-" الضرورات تبيح...."

قاطعه ابراهيم فى صرامة:

-" لقد رفض الرجال كلهم هذا الأمر ، و أقسموا لو أنهم رأوا أى مركبة غريبة سوف ينسفوها نسفا بمن فيها. لقد فضلوا الموت ألما على رمالها على أن يتلقوا عونا من عدوهم.."

شعور من الرضا و الارتياح غمر نفس شعيب

-" انهم يسطرون التاريخ بدمائهم و يعلمون الدنيا درسا فى عشق الاوطان."

هناك فى خندقه راح نور الدين يدون شيئا من يومياته...

"انها ليلة الثامن عشر من أكتوبر ليلة الثاني و العشرين من رمضان"

بهذه العبارة استهل محمد نور الدين تلك الصفحة من مذكراته "

"كم هي قاسية تلك الحياة التى يعيشها المحارب بعيدا عن أهله و حياته و أحبائه و تلك التفاصيل التى يعيشها أرباب الحياة المدنية ولكن كل شيء يهون من أجلك يا وطن"

وضع قلمه حينما تناهى الى سمعه صوت أقدام تقترب على الرمال..

-" أما زلت تدون مذكراتك يا نور؟*

نطقها ابراهيم عبدالتواب و ما زالت صور الشهداء و المصابين تحتل مخيلته و وجدانه.

-"و لن أتخلى عنها يا حضرة القائد و سوف أهديك أول نسخة منها بإذن الله."

نطقها محمد نور الدين محاولا خلق روح من الدعابة لكسر تلك الروح الحزينة التى ألقت ظلالها على النقطة..

-"كلى ثقة أن هذا العمل سيرى النور و ستكون هذه التضحية نبعا صافيا للبطولة و الفداء."

****

-" يا له من صباح جميل. "

نطقها عصام هلال فى سعادة وهما يسيران على شاطىء القناة صوب الفرقة السابعة و قبل أن يعقب حمدى هتف عصام متابعا

-"كما ترى يا رفيق فالقناة على اليمين وحقل ألغام علي اليسار و كما ترى فإن الشمس قد أوشكت على البزوغ و علينا أن نواصل الرحلة سباحة عبر مياه القناة."

قالها ثم اندفع كتمساح نيلي داخل مياه

القناة بكامل ملابسه و شدته القتالية فتبعه حمدى نجيب فى استسلام...

-" ساعتان من السباحة المتواصلة لم أعد أقوى على الاستمرار سوف أوصل المسير على الشاطئ"

نطقها حمدى نجيب و هو يغادر مياه القناة وما ان خرج حتى اتسعت عيناه فى ذعر

- "اخرج بسرعة من المياه يا عصام."

لم يسأل عصام ولم يتردد بل سبح نحو الشاطئ مغادرا المياه ثم سأل صديقة بصوت منخفض:

-" ماذا هناك؟ ما الذى أصابك بالذعر يا صديقي؟"

أشار حمدى الى القناة

-" ألا ترى؟ ليس هناك أى أموج فى القناة...لقد كنا هدفا واضحا سهل المنال لقد كنا نقطة اشارية واضحة فى المياه ".

- "حسنا أيها الصديق أرى أن نكمل المسير برا، ولكن علينا أن نسير فى الأماكن المنخفضة بالقرب من شاطىء القناة بقدر ما نستطيع."

-"و لكن علينا ألا ننسي مهمتنا الاستطلاعية."

-" حسنا مستر هيروا أونودا [6] * "

نطقها عصام ضحكا فنظر اليه حمدى كمن تذكر أمرا مهما ثم هتف قائلا:

-" بالمناسبة لقد رأيت بالأمس أمرا كاد ان يصيبني بالجنون و أردت أن أسألك عنه؟"

-" كلى آذان صاغية يا صديقي. "

تجاهل حمدى طريقته الساخرة ثم هتف متسائلا

-" بالأمس و أثناء هجوم الطيران على النقطة رأيتك تجلس على الساتر الرملي ضاحكا مستبشرا فهل لك أن تفسر لي هذا؟. "

تلاشت نبرة الضحك من صوت عصام ثم نظر الى صديقه فى جدية قائلا

-" أنا أنظر لتلك المقذوفات التى ترميها الطائرات و أحسب أن عمرى هو تلك اللحظات ما بين سقوط المقذوف و وصوله الى الارض ساعاتها سأحظى بالشهادة و ال..."

وضع حمدى يده على شفتي صديقه ليمنعه من مواصلة الحديث مشيرا نحو الشرق حيث كانت مفاجأة بانتظارهما...

---

[6] *هيروا أونودا* ولد في (19 مارس1922) وتوفي في (17 يناير 2014)، هو ضابط استطلاع في الجيش الياباني، قاتل في الحرب العالمية الثانية، ولم يستسلم حتى عام 1974. يعد آخر جندي استسلم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية

فهناك و على مرمى البصر كانت هناك نقطة تموين إسرائيلية حيث كانت تقف دبابة اسرائيلية للتزود بالوقود.

تواريا في صمت ثم واصلا المسير.. اجتهدا فى تسجيل كل رأته عينيهما.

-"انبطحوا."

مزقت هذه الكلمة-التى انطلقت بالعبرية- هدوء المنطقة من حولهما فتوجها بناظريهما صوب مصدر الصوت .....انها سرية مشاة اسرائيلية أصابها الرعب لمرئي البطلين فانبطحوا على الرمال فى هلع..

-"إياك أن تطلق النيران يا عصام."

نطقها حمدى فى حسم بعد أن رأى إبهام رفيقه المتحمس لإطلاق الرصاص ثم واصل حديثه شارحا لرفيقه سبب منعه من إطلاق النار قائلا

-" لو أنك أطلقت النار فسوف تجذب كتائب اليهود نحونا ساعتها لن نتمكن من نجدة رفاقنا المحاصرين فى كبريت."

أقنعته كلمات حمدى فارتخت يده المتحفزة على الزناد و استمرا فى المسير.

-"لقد أوشكنا على الوصول بسلام."

نطقها حمدى و هو يشير الى ذلك المعسكر القريب فهتف به عصام بطريقة مثيرة للعجب

-" لا تتعجل فى الحكم يا صديقي فقد تحدث فى الأمور أمور."

قالها و قد تباطأت خطواته و كأنه قد رأى أمرا جللا فهتف به حمدى.

-"أقول لك أسرع و أنت تتلكأ و تجذبني من ثيابي و....."

بتر عبارته و هو يشاهد سبب ذهول صديقه فهناك و فى احدى الحفر كان هناك أحد المحاربين يصوب سلاحه نحوهما.

-*ضعا ايديكما فوق رأسيكما و لا تتحركا. "

نبرة صوته الحازمة القاسية جعلتهما ينفذان الأمر فى استسلام، وضعا أيدهما فوق رأسيهما فى بطء و استدارا فى مواجهة الرجل. تأملا ملامحه المنهكة المرهقة فى صمت، لاحظا فى وجهه كل إعياء الكون ...كم أنت قاسية أيتها الحروب

-" من أى فريق أنتما؟ أجبياني بصدق و إلا أطلقت النار عليكما.

نطقها الرجل بكل ما فى الكون من تعب و إعياء فرد عليه عصام بتلقائية

-" نحن ضابطان من قوة اللواء ١٣٠مشاه أسطول فى طريقنا لطلب المدد و المؤن من قيادة الجيش.."

خفض الرجل سلاحه فى إعياء ثم هتف قائلا

-" أنا فرد مشاه مصري استشهد جميع أفراد فصيلتي وفقدت ذراعي اليسرى. أرجوكما ساعداني.."

ما ان قالها حتى سقط فى حفرته مغشيا عليه فهرعا اليه فى لهفة. قفزا داخل الحفرة ليجداه قد فقد الوعى، ما زال مرتديا تلك الملابس والتي عبر بها يوم السادس من اكتوبر..

-" هل نتركه و نذهب لنحضر النجدة أم يبقى أحدنا الى جواره ويذهب الاخر لطلب المساعدة "

نطقها عصام فى لهفة فرد عليه حمدى

-"و لماذا لا نحمله معنا و كما ترى فالمسافة بيننا و بين الفرقة السابعة ليست بعيدة."

****

-" هذا هو كل ما حدث يا سيادة العميد."

نطقها حمدى نجيب بعد حكى هو و رفيقه كل ما حدث للكتيبة وكل ما رأوه خلال تلك الرحلة، تأملهما العميد احمد بدوى[7]* فى شيء من الشفقة و كثير من الاعجاب،تأمل ثيابهما الرثة و تلك الرمال الجافة التى كست وجوههم و التصقت بها

-*أولا أريدكما أن تذهبا الى رئيس عمليات الفرقة ليقوم بعمل اللازم نحوكما ثانيا أريدكما أن تنالا قسطا من النوم لأن الاجهاد وقلة النوم يظهران عليكما بوضوح. يمكنكما الانصراف."

أديا التحية العسكرية ثم انصرفا متوجهين الى رئيس عمليات الفرقة حيث كان بانتظارهما مفاجأة.

نظرا الى رئيس عمليات الفرقة فى دهشة

-" أليس هذا هو...."

و كأن عدوى الحيرة انتقلت الى عصام

- " نعم إنه هو!!"

بكثير من الانفعال و الاستغراب هتف رئيس عمليات الفرقة

-" من أنتما و ما الذى يحدث هنا؟"

نظر اليه حمدى نجيب فى مودة

- "انت سيادة المقدم فاروق محروس أليس كذلك؟

---

[7] *العميد احمد بدوى:* : وزير الدفاع القائد العام للقوات المسلحة المصرية الأسبق وأحد قادة حرب أكتوبر المجيدة. [1]ولد في الإسكندرية، في 3 أبريل1927 ، وتوفي في 2 مارس 1981 في حادث تحطم مروحيته الغامض

كيف حال أمنا العزيزة سعاد؟"

تلك الألفة التى غمرت فاروق جعلته يقر بينه و بين نفسه بمعرفة الشخصين معرفة وثيقة الا ملامحهما باتت غير معروفة له فهتف متسائلا

-" من أنتما؟"

أذهلت كلماته حمدى

-"أهكذا تفعل الحروب بالرجال؟ يا إلهى! ألهذا الحد تغيرت ملامحنا؟انا جارك و تلميذك حمدى نجيب و هذا صديقي عصام أنت تعرفنا جيدا."

اتسعت عينا فاروق فى دهشة مجددا

- "ما الذى فعل بكما هذا؟"

-" منذ وقت العبور وحتى هذه اللحظة و نحن بالملابس و الشدة التى عبرنا بها لا ننام سوى غفوات."

-" لن أطيل عليكما والان يجب أن تذهبا للحلاقة و لتغتسلا و تنالا قسطا من النوم و الراحة.."

****

انها الساعة الثانية عشر مساء يوم التاسع عشر من اكتوبر،ألقى عصام نظرة سريعة على وجوه أفراد غرفة العمليات المتأهبين و المستعدين دائما للتضحية بأرواحهم من أجل تراب هذا الوطن

-" لقد أرسلنا دورية استطلاع لتحقيق اتصال بالنقطة و التحقق من المعلومات التى أبلغتمونا بها."

نطقها العميد احمد بدوى متوجها بها اليهما و قبل أن يتفوه أى منهما بكلمة واحدة واصل حديثه قائلا

-"و لقد تم الاتصال بالنقطة و التحقق من صحة المعلومات و الان سوف نرسل معكم طبيب ليقوم بتقدير الحالة الصحية للمصابين و ممرض و سوف يتم تزويد كل منكما بكمية من الأدوية و التعيين و قد أمرت قيادة الجيش بتزويدكم بشبكة لاسلكي كاملة الترددات بالإضافة الى أربع جراكن مياه صالحة للشرب وهناك رسالة مهمة أود أن تسلماها لقائد اللواء."

قالها ثم تناول ورقة مطوية ناولها لحمدى

- " هل هناك أوامر أخرى يا سيادة العميد؟"

نظر اليهم العميد احمد بدوى نظرة مفعمة بالإعزاز والاحترام

- " سيروا على بركة الله...فى حفظ الله و أمنه."

****

بابتسامة ودودة استقبل ابراهيم عبدالتواب الرجال العائدين بعد أن وضعوا رحالهم

- "حمدا لله على سلامتكم ايها الابطال."

صافحة الطبيب فى حرارة

- "لكم يسعدني رؤيتكم يا سيادة المقدم فلقد سمعت كثيرا عن سمعتكم الطيبة و لطالما تمنيت لقائك."

ارتسمت على وجه ابراهيم ابتسامة مشوبة بالتواضع و الخلق

-" أشكرك يا حضرة الطبيب..."

نظر شعيب الى الرجال فى شيء من الاعزاز

-" ترى ماذا لديك يا حمدى؟*

-* لقد أمرني سيادة العميد أحمد بدوى أن أسلم هذه الرسالة لسيادتكم."

تناول شعيب الرسالة ثم فضها ليقراء ما فيها

" نشيد بك و بشجاعة رجالك عليكم التمسك بالنقطة حتى أخر رجل وأخر طلقة"

قرأها العميد شعيب بصوت مرتفع على سمع الجميع.

فرد عليه ابراهيم عبدالتواب

-" هذا أمر بديهي، أولا علينا أن نبدأ بتنفيذ أوامر القيادة فيما يخص المصابين."

تدخل عصام هلال قائلا:

"لقد أبلغونا أن علينا أن نبدأ بالمصابين القادرين على السير بعد ذلك يتم الدفع بمجموعات مكونة من خمس أفراد لنقل المصابين الغير قادرين على السير محمولين على نقالات.

هز ابراهيم رأسه مؤمنا و مؤيدا

-" على بركة الله.."

****

"العشرون من أكتوبر"

بهذه العبارة استهل محمد نور الدين هذه الصفحة من مذكراته

"قصف مكثف لقوات الطيران منذ الاضواء الاولى للصباح...أربع طائرات فانتوم كل طائرة تحمل تحت جناحيها ألف رطل من المتفجرات و المقذوفات.....لقد توقف قصف الطيران بعد ساعات يبدو انهم قد قرروا منحنا بعض الوقت لنستريح"

هناك فى نقطة ملاحظة القيادة هتف ابراهيم عبدالتواب مخاطبا سمير عبد العزيز

-" أريدك أن تخرج لتحديد حجم الخسائر التى أحدثتها الهجمات الجوية الأخيرة."

شد سمير قامته فى حماس

-" تمام يا أفندم."

قالها ثم توجه الى خارج النقطة مارا بأحد الخنادق الحصينة المرتفعة....

-"الحمد لله ليس هناك خسائر فى الأرواح."

نطقها سمير عبدالعزيز و هو يبدأ رحلة العودة نازلا فى أحد الخنادق. كم هى قوية و حصينة شبكة الخنادق تلك التى أنشأها اليهود..

-"هل هناك خسائر فى الأرواح يا سمير؟"

نطقها المقدم رضا نور قائد ثان الكتيبة ٦٠٢ حيث كان يقف فى مفترق الخنادق و معه السيد وهدان و قائد سرية الميم دال

-"ليس هناك أى خسائر فى الأرواح فقط هناك خسائر فى المعدات.."

نطقها سمير عبدالعزيز ثم استدار ليبلغ قائده بما لديه نتائج .. خطوات فقط قطعها ثم وجد نفسه طائرا فى الهواء كالبالون تتقاذفه جدران الخنادق....انفجار عنيف مدو نتج عن قذيفة هاوزر١٥٥ملى[8]تبعثر على إثرها تبعثر الرجال فى كل الأرجاء.

-" سمير. "

صرخة ملتاعة أطلقها سعد أنور فى لوعة و أسي و هو يشاهد رفيقه فى الكفاح مسجى على الرمال و قد أصابته عدة شظايا فى أرجاء متفرقة من جسده تأمل فروة رأسه و قد سلخت تماما و غطت الدماء وجهه...

-"أش....."

لم يستطع سمير أن يكمل الشهادة و فتح فمه و عينيه فمد سعد يده ليغلق فمه و عينيه قائلا

---

[8] مدفع «الهاوتزر»الذاتي الحركة عيار 155 مم M 109، أمريكي الصنع، وطاقمه ستة أفراد أفراد ويستطيع حمل 11 فردا منهم 9 أفراد بكامل أسلحتهم، وتبلغ زاوية ارتفاع المدفع 75 درجة،

-"أشهد أن لا إله الا الله و أشهد أن محمدا رسول الله...وداعا ايها الصديق العزيز الى جنة الخلد بإذن الله ."

قبلة وداع حانية طبعها على جبين رفيقه المسجى فوق رمال سيناء....بلوعة تأمل الرجال المتناثرين من حوله ..أرهقت سمعه وزلزلت كيانه تلك الأنات... هناك عند أعلى نقطة فى الحصن و الى جوار العلم سقط عبدالرازق شامه شهيدا.

-" أريدكم أن تدفنوني هنا بين رمالها.

نطقها السيد وهدان فى وهن فهتف سعد أنور مطمئنا

-" اطمئن فحالك أفضل بكثير من سمير عبد العزيز.."

لم يكد سعد ينطقها حتى هتف السيد وهدان

-" أشهد أن لا إله الا الله و أشهد أن محمدا رسول الله.."

قالها ثم فاضت الروح الى بارئها و قد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

-"ما أجمل ابتسامة الشهداء و ما اتعسنا من بعدهم."

نطقها سعد أنور مخاطبا بها ابراهيم عبدالتواب بعد أن هرع هو و من معه للاطمئنان على الرجال المبعثرين على الرمال،

-" السيد وهدان و عبدالرازق شامه و سمير وهدان و الملازم نور والمقدم رضا استشهدوا جميعا."

نطقها طبيب النقطة فى أسي و حزن.

يا لها من لحظات قاسية و حزينة تلك التى نفارق فيها من نحب. فى رأس سعد ما زالت ترن ضحكات عبدالرازق شامه بطل الصاعقة و أول دفعتها..

."ابو السعود الشاى ع النار والجار للجار "ما زالت دعابته المرحة تتدفق فى نفس سعد دافئة تنبض بالحياة .

عض ابراهيم عبدالتواب على شفته فى أسي و هو يشاهد الرجال يحفرون لرفاقهم ثم أشار الى نقطة مجاورة لمرقد عبدالرازق شامه قائلا

-" أريدكم أن تدفنوني هنا بين رجالى."

هز الرجال رؤوسهم فى أسي دون أن ينطقوا بكلمة واحدة.

****

-"يا له من يوم عصيب."

نطقها ابراهيم عبدالتواب بشيء من العصبية و الحزن فقد دمر الطيران كل و سائل الاتصال بين قيادة النقطة و بين المقاتلين.

-"بالتأكيد هناك حل لهذه المشكلة يا افندم."

نطقها سعد أنور فى حماس فرد عليه قائده

-"انها عملية انتحارية بجدارة."

بكل ما فى الكون من يقين هتف سعد قائلا

-"رب جبان مات فى مخبئه و رب جرئ كتبت له السلامة..أليست هذه كلماتك يا سيدى؟؟"

و كأن ابراهيم قد فهم ما يرمى اليه سعد

-*هل تقصد تلك البكرة العملاقة من اسلاك الاشارة؛الموجودة خلف سرية النقيب شوقى الجوهرى."

-" نعم يا سيدى سوف اصطحب معي جنديان لنقوم بفرد اسلاك الاشارة لتحقيق الاتصال مع جميع القوات."

-"أريدك أن تنتبه فتلك النقطة تقع عند خط السماء *."[9]

-"لا تقلق يا سيدى فلكل أجل كتاب."

نطقها فى عجله مهرولا صاعدا نحو الشرق مصطحبا معه جنديان.

لم يأبه لأزيز الطلقات و الشظايا من حوله .....

-"يا لها من مهمة صعبة."

نطقها سعد أنور و هو يتأمل تلك الربوة العالية المكشوفة،

-"علينا أن نقوم بقلب البكرة على أحد جانبيها لكى نتمكن من فرد السلك وقصه ثم توزيعه على السرايا.."

تعاون ثلاثتهم لقلب البكرة ليجدوا أنفسهم أمام عقبة كؤود.

-" يا له من مأزق سخيف.."

---

[9] خط السماء *أعلى نقطة فى ميدان القتال

نطقها سعد أنور فى غضب و ضيق و هو يقذف بتلك القصافة بعيدا.

-"أظن أن مهمتنا قد فشلت. "

نطقها أحد الجنديين فى يأس مرير.

-" محال. "

قالها سعد ثم وضع السلك المعدني بين فكيه محاطا بنظرات الذهول و الدهشة من الجنديين فما يفعله سعد أنور يكاد يكون محال. فسلك الإشارة يتكون من أربعة أطراف من النحاس و ثلاثة أطرف من الصلب

-"الله أكبر "

نطقها الجندي الاخر و هو يشاهد ذلك السلك الصلب يذوب تحت إرادة قائده الصلبة .

-" هيا أيها البطلين قوما بفرد السلك و توزيعه على السرايا."

أنهمك الجنديان فى تلك المهمة الجسيمة....حادث جلل لفت انتباه سعد بشدة فعلى بعد عشرين متر فقط من حدود النقطة كان هناك دبابتين إسرائيليتين تقتربان. فى وجل نظر سعد الى أقرب النقاط الدفاعية ليجد العريف محمد محمد بهلول يطلق النار من مدفع رشاش ماكنة نحو الدبابتين فى غزارة...كل طاقم المدفع من حوله قد استشهدوا و مع ذلك لم يستسلم، وقبل أن تتقدم أى من الدبابتين خطوة للأمام خرج ثلاثة من الجنود مهرولين حاملين أسلحتهم الخفيفة فى جسارة متوجهين صوب الدبابة، مشهد مذهل لا يمكن تصديقه ، هذه

الجرأة أصابت طاقم الدبابة اليهودية بالهلع فغادروا الدبابة فى ذعر، عدوى الزعر والهلع التى ألمت بطاقم الدبابة الأولى أحاط كليا بقائد الدبابة الثانية و الذى ارتد بدبابته محاولا الفرار ليجد نفسه وسط حقل الالغام اليهودي، و مع ذلك الانفجار المدوي ارتفعت صيحات التكبير من أفواه الرجال.

-"الله أكبر ."

نطقها سعد أنور بينه و بين نفسه و هو يشاهد انسحاب القوات الاسرائيلية فى هلع

****

حول ذلك المذياع الصغير التف ابراهيم و ثلة قليلة من الرجال منصتين باهتمام و تركيز

-" هذا و من المتوقع أن يتم توقيع اتفاقية وقف اطلاق النار بين الجانبين العربي و الإسرائيلي فى غضون الساعات القليلة القادمة.....سيداتي و سادتي هذه الاخبار نوافيكم بها من القاهرة....

بطريقة تلقائية أدار ابراهيم عبدالتواب زر تشغيل الراديو ليتوقف البث ... ساد الصمت لحظات والرجال ينظرون الى بعضهم البعض فى صمت لم يقطعه سوى صوت سعد أنور

- "ترى هل سيتم حقا وقف اطلاق النار؟"

مط مقلد شفتيه فى شك

-" و لما لا...اسرائيل لا تقوى على الحروب الطويلة

-" أظن أن اسرائيل لن تقبل بوقف اطلاق النار فسيناء منطقة حيوية مهمة بالنسبة لها."

نطقها العميد شعيب شارحا وجهة نظره، فهتف سامى حجازى قائلا

-" أنا أوافق على كلام سيادة العميد شعيب، ولكنى لم أسمع كلمة واحدة من سيادة المقدم ابراهيم..ترى هل تدرس الأمر جيدا فى رأسك أم ماذا؟"

انتبه ابراهيم من شروده ثم هتف داليا بدلوه

-" أرى أن نتمسك بالأرض حتى اخر طلقة و اخر رجل فأحفاد القردة و الخنازير لا عهد لهم و لا ذمة حتى لو وقعوا الاف الاتفاقات فهم لن يلتزموا بها. أكرر يا سادة علينا ألا

ننخدع بهذه العبارات البراقة و أن يظل السلاح يقظا فى أيدينا حتى اخر نفس."

-"قطعت جهيزة[10] * قول كل خطيب...لقد حسمت كلماتك يا ابراهيم كل الجدل والشكوك."

ما ان نطقها العميد محمود حتى هز الجميع رؤوسهم مؤمنين و مؤيدين لرأى ابراهيم عبدالتواب و انصرفوا الى ثغورهم فى صمت.

****

-" صوت المدفعية يعنى أن هناك هجوم بري و قد دمر الطيران شبكة الاتصال من جديد "

[10] قطعت جهيزة قول كل خطيب». أي أن الخطب البليغة لم تعد تجدي، لأن الغاية منها ذهبت أدراج الرياح

نطقها محسن علام مخاطبا بها الى شوقى الجوهرى والذى هتف قائلا

-" علينا أن نخرج لنتلقى الأوامر من القائد مباشرة"

غادرا خندق الخط الأمامي في جنح الظلام متوجهين الى حيث خندق القائد ..

-" اسمعوا ايها الرجال لقد دمر الطيران كل خطوط الاشارة لذا فلن يطلق أحد النار الا بأمر منى."

نظر قادة السرايا و الفصائل الى بعضهم البعض فى دهشة ثم هتف سامى حجازى متسائلا

-" و كيف سيتثنى لسياداتك فعل هذا؟"

-" لن يطلق احد النار الا بعد رؤية الإشارة المتفق عليها....."

نطقها ابراهيم ثم توجه بالحديث الى قائد

سرية الهاون* [11]

-" اسمعني جيدا يا خولى،حينما اعطيك الاشارة تطلق قذيفة هاون كاشفة مضيئة بعدها يقوم الجميع بإطلاق النار في وقت واحد و بكل الأسلحة و بغزارة....هل تسمعون؟ جميع

[11] الهاون عبارة عن قطعة مدفعية صغيرة ذات عيار قوي للضرب العمودي. من الأسلحة النارية القديمة بسيطة قليلة التعقيد وهي تتوفر بعيارات مختلفة وان كان الشائع منها العيارات 60 مم،81 مم، 120 مم، ويوجد عيارات أخرى تختلف حسب مصدر إنتاجه

الأسلحة فى وقت واحد و بغزارة ....و الان اذهبوا الى ثغوركم على بركة الله."

من بعيد و من داخل دبابة القيادة تأمل عوفر زافرير*[12] نقطة كبريت

صمت مهيب خيم على المكان زادته ظلمة الليل غموضا

-" هل انت متأكد أن هذه النقطة بها أحياء؟"

نطقها عوفر في شيء من الدهشة و الوجل و هو يتطلع الى المنطقة عبر منظار الدبابة

فرد عليه مساعده و هو ينظر عبر منظار الدبابة فى شيء من الريبة

-" من الممكن أن يكون سلاح الطيران قد دك النقطة فوق رؤوس من فيها و لم يعد فيها أحياء او ربما فروا منها..."

-" أخشى أن يكون هناك فخ ما ولا....."

لم يستطع عوفر زافرير اكمال جملته فقد انفجرت قذيفة الهاون الكاشفة و أضاءت ميدان المعركة من حوله.....ألجمت المفاجأة أفواه الجميع و شلت تفكيرهم بعد أن وصلوا الى المدى المؤثر لأسلحة ابراهيم ورجالة خطة عسكرية بارعة تدرس فى المدارس والاكاديميات العسكرية....انطلقت النيران من كل حدب و صوب، وجد

[12] عوفر زافرير قائد سلاح المدرعات الاسرائيلي فى حرب السادس من اكتوبر

الاسرائيليون أنفسهم بين المطرقة و السندان، حالة من التخبط و الهلع سرت فى صفوف القوات الاسرائيلية..

-"يا لها من ليلة حالكة السواد."

نطقها عوفر و هو يشاهد دبابتين من رتله ترتدان و تدخلان حقل الألغام الإسرائيلي منظر الدبابتين و هما تنفجران ألهب الحماس فى نفوس الرجال فارتفعت الحناجر بالتكبير ...مزيد من الارتباك و التخبط ألم بالقوات الإسرائيلية... ملحمة بكل المقاييس سيمفونية متواصلة من الطلقات.

-"هيا ايها المالوتكا [13]*العزيز."

نطقها ابراهيم السكرى و هو يضغط على زر اطلاق صاروخه الموجه بالسلك وكأن الصاروخ قد اكتسب الكثير من حماس صاحبة و ما هى الا لحظات حتى استقر الصاروخ فى قلب احدى الدبابات الاسرائيلية محاطا بالتكبير

-"اللعنة."

نطقها عوفر فى سخط عارم فهتف مساعده

***-" هل نأمر ما تبقى من قواتنا بالانسحاب؟ ***

-" أظن أنكم تفرون و تنسحبون أكثر من دخولكم دورات المياه. علينا أن نحاول الصمود قليلا."

---

[13] ال**صاروخ مالوتكا** من صنع روسي شرقي، هو صاروخ مضاد للدروع من الجيل الأول، مخصص للرمي على الأهداف المدرعة والعربات والتحصينات، يوجه بواسطة سلك

نطقها عوفر فى سخط و ازداد انزعاجه مع تلك البلاغات الفزعة المرعوبة من قادة الدبابات المحيطة- و التى حملتها له أجهزة الاتصال-

-" لقد فقدنا سبعة عشر دبابة و أربع ناقلات للجند"

نطقها مساعد عوفر فى هلع فهتف هذا الاخير عبر أجهزة الاتصال

-" على جميع القوات الإسرائيلية الانسحاب فورا....أكرر على جميع القوات الاسرائيلية الانسحاب فورا."

****"*****

بدا علي وجهها الاهتمام و هي تنظر الي عدد من الملفات الهامة و العاجلة الموضوعة علي مكتبها تنولت أحدهم في عجلة. بدا لها انه أهم الملفات علي الاطلاق تصدر غلافه حصن البورترز أو كبريت. بعينين ذاهلتين راحت تقرأ فحواه. قهر متصاعد بدا وجهها مع كل حرف وقعت عليه عيناها.

مع نهاية التقرير تعالت طرقات علي الباب فولت وجهها للباب قائلة

-"ادخل."

دخل موشي دايان بادي الكرب و الضيق

-"صباح الخير حضرة رئيسة الوزراء."

أغلقت الملف ثم رفعته في وجهه

-" هل لك ان تفسر لي هذا."

طأطأ رأسه مجددا فألقت بالملف علي سطح مكتبها في قهر

-"جيش بأكمله لا يستطيع القضاء علي كتيبة من جيش مصر. يا لها من فضيحة!"

-" لقد حاولنا بالأمس و لكن...."

-"و لكن ماذا؟ فشلتم في اقتحام نقطة محاصرة و فقدتم عشرات الدبابات و الأفراد و المركبات. أليس كذلك.؟"

ذم شفتيه غاضبا متوعدا

-"غدا سوف نسحقهم سحقا. سوف نرسل لهم لواءات كاملا من المشاة. و سوف ترين يا سيدتي. "

قالها ثم انصرف حانقا.

****

-" عادوا بخفي حنين . "

نطقها اسامه عبدالله في ثقة و يقين و هو يشاهد انسحاب لواء المشاة الميكانيكي الاسرائيلي مقهورا مدحورا.

-" ارفعوا ايديكم عاليا و إياكم أن تقوموا بأي عمل متهور."

نطقها محسن علام و هو يصوب سلاحه نحو ثلاثة من الأسري الإسرائيليين و الذين بدا عليهم الذهول و الأسى و الذهول

-" أرجوكم لا تقتلوني فأنا عربي مثلكم."

نطقها أحد الأسرى محملة بالكثير من اللؤم و المكر و الدهاء و هو ينظر الى أحد جنود محسن علام الثلاثة وقبل أن يقدم محسن على أى تصرف مد الأسير الإسرائيلي يده بحركة مباغته صوب سلاح احد الجنود محاولا انتزاعه منه و قبل أن ينجح فى بلوغ مراده أطلق الجندي وابلا من الرصاص صوبه فأرداه قتيلا. فيوض من الهلع اجتاحت الأسيرين الأخرين فرفعا ايديهما فى صمت و استسلام، و بلا كلمة واحدة سارا أمام محسن علام و رجاله نحو الغرب..

-"يبدوا أنهما من يهود أوربا و ليسا من اليهود العرب."

نطقها ابراهيم عبدالتواب و هو يتفرس فى ملامح الأسيرين فكلاهما من ذوى البشرة البيضاء المشربة بالحمرة. أجسامهم الممتلئة و ملابسهما النظيفة تدل على أنهما حديثا عهد بالحرب و القتال..

هتف ابراهيم في يقين:

-" يد الله فوق ايديهم....."

صمت لثوان أشار الي رجاله متابعا

-" هيا سلموهم للغرب. "

-"ماذا عن تلك الغنائم يا حضرة القائد."

متسائلا نطقها شعراوي

.....

-" عليك ان تصحب خمسة من الرجال لفحص ما خلفه هؤلاء الجبناء."

علي اثرها انطلق جابر بصحبة الرجال نحو الغنائم و الأسلاب. ناقلات جند اهترأت تحت وطأة يقين الرجال. دبابات حديثة ما زالت تفيح منها رائحة الدخان. تأمل جابر ناقلة الجند المحترقة. كل من فيها لاقوا حتفهم. رداء الحرب الحزين القاسي لف القلوب و المشاعر. لا وقت للشفقة او الشماتة. في صمت مهيب قام الرجال بحفر قبر جماعي لقتلي الأعداء ثم وأدوهم فيه. هكذا تربوا في العسكرية المصرية علي احترام البشر حتي و لو كانوا من الاعداء. ما بعد الدفن انتشر الرجال ليعرفوا ما بين يدي عدوهم . علي بعد خطوات كانت ترقد دبابة ام ٤٨ حديثة الصنع. تأمل ماسورة مدفعها المنخفضة في ذلة و انكسار . حينما قفز داخل الدبابة شعر بالدهشة ففي قلب الدبابة أشكال و ألوان من الرفاهية تتنافي مع أبسط قواعد العسكرية. تأمل معلبات الكمبوت و ما فيها من مشروبات و أطعمة فاخرة معلبات تحوي عسل النحل و أخري تحوي زيت الزيتون. هناك ملابس مكوية و نظيفة الي جوارها خرائط في قلبها ترقد مهام الجنود.

-"أأنت واثق هذه أغراض محارب."

نطقها ابراهيم مازحا فهتف جابر

-" هذا ما وجدناه داخل الدبابات يا افندم."

ضحكة صافية أطلقها القائد مردفا :

-"ظننتها أغراض تلاميذ في رحلة الي القناطر الخيرية."

.....

-"الرفاهية لا يمكن ان تصنع محاربا صلبا. هكذا تعلمنا في العسكرية المصرية. "

هز القائد رأسه مؤمنا:

-" صدقت يا جابر فالعسكرية المصرية مصنع الرجال و عرين الأبطال."

.....

-" علي جميع الرجال توخي الحذر و الاحتماء داخل الملاجئ و الدشم فهناك غارة جوية علي الموقع. "

تكرر التحذير القادم من سرية الدفاع الجوي عبر أجهزة الاتصال فلزم الرجال الحذر. ذلك الدوي المرعب و الذي صم الأذان زاد الرجال تصميما و عزيمة. ارتجاجات قوية تداعي لها البشر و الحجر. رغم ذلك لم يهن الرجال.

-"الان فقط أدركت قيمة التدريبات الشاقة التي حصلنا عليها."

هز شوقي رأسه مؤمنا علي إثر كلمات محسن المعجونة بالإصرار و التصميم

-"علينا ان نصبر يا صديقي فما النصر الا صبر ساعة."

هناك في دشمة أخري بدا اليقين و الصبر محفورا علي وجوه أخري

-"ما أشبه اليوم بالبارحة."

نطقها مقلد ممزوجة بالكثير من السخرية المريرة و أزيز القذائف و الدانات من حوله يكاد يصيبه بالصمم هو و بقية الرجال.

هز سعد رأسه مؤمنا متابعا:

-" لقد تسببت احدى الدانات بالأمس فى حفر حفرة عميقة تفجرت منها مياه جوفيه..."

-"صدق القائد ابراهيم حين قال أن هؤلاء لا عهد لهم ولا ذمة فاليوم هو الثالث و العشرون من اكتوبر و ما زالوا يهاجمون النقطة بضراوة.."

ساد بينهما الصمت لثوان ثم تابع سعد و هو ينظر الى تلك القضبان الفولاذية التى بطنت الخندق ثم هتف

-" يا له من عمل متقن. لقد أتقنوا بناء الخنادق و الحصون كما لو كانوا سيظلون فيها للأبد."

بحروف معجونة بالمرار هتف مقلد

-" لذلك هم يقصفونها بقسوة و ضراوة.."

- "مهما قصفوا و مهما حاصروا و الله لن نتخلى عن حبة واحدة من رمال سيناء و...."

لم يكمل جملته بسبب ذلك الانفجار المريع فقد سقطت إحدى القذائف فوق الملجأ مباشرة قوة الانفجار انتزعتهما من فوق الارض انتزاعا..... طار مقلد فى الهواء ليصطدم راسة بأحد الأعمدة الفولاذية ليسقط على الأرض بلا حراك ....موجة

عنيفة من السعال انتابت سعد بسبب سحب الغبار الناتج عن الانفجار بعدها شعر بآلام مبرحة فى ذراعه. أجبره العجاج الذي ملأ الجو من حوله علي اغلاق عينيه مجبرا

-أمين...هل أنت بخير؟

لم يتلقى جوابا فكرر سؤاله فى هلع حاول أن يخترق سحب الغبار بحثا عن رفيقه فى الكفاح الا ان سحب الغبار كادت أن تصيبه بالعمى فأغلق عينيه فى استسلام، مرت الدقائق كأنها سنوات حتى انقشع الغبار. فتح عينيه بصعوبة ليجد رفيقه مقلد مسجى على الأرض بلا حراك و قد تخضب رأسه بالدماء الحارة. هالة من النور أحاطت بوجهه الباسم. تفحصه فى لوعة ثم طبع قبلة حارة على جبينه

- انا لله و انا اليه راجعون ونحن على دربكم سائرون.

****

-"يا إلهى ما الذى يحدث هنا..."

خرجت هذه الكلمات لا ارداديا من فم قائد القوات الاسرائيلية المكلفة بحصار نقطة كبريت متوجها بها الى نائبه فى دهشة.. فأمام عينيه الذاهلتين مشهد مهيب لا يصدقه عقل، فى قلب

نقطة كبريت المحاصرة ارتفعت تكبيرات العيد من أفواه الضباط و الجنود

أخذ قائد القوات اليهودية يقلب كفيه فى ذهول وهو يشاهد الرجال و هم يتبادلون التهانى ثم أخذ يهزى كالمجنون

-يكبرون بلا خوف و بلا وجل وفى ثقة و اطمئنان. ترى أى سلاح لديهم منحهم هذه الطمأنينة...و لماذا أصابتنا الرهبة ولم نطلق عليهم النار..."

نظر الى نائبه كالمجنون متابعا

-" أجبني لماذا لم نطلق عليهم النار؟"

تجاهل نائبه السؤال وهو يشير الى ابراهيم عبدالتواب ورجاله

-" طالما أن مصر بها رجال كهؤلاء فلن تنال أى يد غادرة حبة واحدة من رمال سيناء."

****

هناك فى تلك البناية القديمة- و التى لا يبدوا على ساكنيها أى مظهر من مظاهر الثراء و الترف - مزقت تلك الخطوات الملهوفة العجلة سكون الليل و هدوءه...اقتربت خطاهم من ابواب احد الشقق تطلعت عيونهم الى تلك اللافتة الصغيرة القابعة فى سكون بمنتصف باب الشقة والتي كتب عليها "دكتور سيد الجندي*"

انهم ثلاثة من ضباط القوات المسلحة. تردد أحدهم فى طرق الباب فهتف به الاخر و هو يطرق الباب فى لهفة

-"أعلم أنه غادر المستشفى منذ ساعة واحدة فقط ولم يحصل على قسط كاف من الراحة، ولكنه هو من طلب منا هذا."

قبل أن يتلقى ردا من رفيقه فتح الباب شاب فى العقد الثالث من العمر يرتدى ملابس النوم فتلعثم أحدهم ثم هتف فى حرج

-"انا اسف حقا يا دكتور ولكن هناك حالة حرجة و.... "

قاطعه معاتبا

-" اياك ان تعتذر فمصر كلها مدينة لهؤلاء الابطال...ما يقدمه هؤلاء الابطال هو دين فى رقاب الجميع مهما فعلنا فلن نرد سوى القليل من حسن صنيعهم."

قالها وهو يتناول ملابسه الملقاة على الأريكة المواجهة للباب فهتف به أحد الضباط فى دهشة

-" ألن تغير ملابسك يا دكتور سيد؟"

-" سأغير ملابسي فى السيارة فكل ثانية من حياة هؤلاء الابطال لا تقدر بثمن."

قالها ثم سبقهم الى السيارة العسكرية التى طوت الارض طيا فى طريقها الى مستشفى المعادي العسكري.

و هناك عند باب غرفة العمليات طالعه وجها مصريا ينتظره فى لهفة

-" عذرا دكتور سيد و لكن الحالة طارئة و حرجة و.."

نطقها دكتور هشام ابو النصر[14]*فقاطعه سيد قائلا:

-" لقد علمت بكل تفاصيل الحالة هل غرفة العمليات جاهزة؟"

هز هشام رأسه بالإيجاب فتوجه سيد الى غرفة العمليات قائلا

-"لنبدأ على بركة الله."

****

[14] *هشام ابو النصر:* هو طبيب مصرى من أشهر جراحى المخ والاعصاب تخرج من كلية الطب عام ١٩٤٤و توفى

-" لقد اكتشف الاسرائيليون طريق دورية الإمدادات و قطعوا طريق الدورية..."

فى حضرة القائد و ثلة من الرجال وعلى شاطئ القناة و عند الظهيرة نطقها حمدى نجيب فى أسى فرد عليه ابراهيم فى عجلة و لهفة

-" هل أصيب أحد من رجالنا بسوء؟"

-" الدورية كلها بخير و لم يصاب أحد من أفرادها بسوء."

-" حمدا لله على سلامة الرجال."

-" و لكن ما لدينا من الماء لا يكفى سوى يوم و احد أما الطعام فقد يكفى يومان أو ثلاثة."

تعلقت عينا ابراهيم عبدالتواب بسطح القناة لثوان فالتقط سعد الدسوقى طرف الخيط

-" أعرف فيما تفكر يا حضرة القائد..."

أومأ ابراهيم برأسه مؤمنا ثم هتف مشيرا الى سطح القناة قائلا

- " لا حل سوي القناة."

.....

في ذلك الوقت المتأخر من تلك الليلة و فى ملجأ القيادة مثل ابراهيم عبدالتواب بين يدى قائده لمناقشة الوضع الميداني للنقطة

-" أنت تعلم أن احتياطي الكتيبة من الماء على وشك النفاد، ان لم يكن قد نفد بالفعل و كذلك احتياط الطعام و ترى شدة الحصار و قسوته و....."

صمت شعيب شعيب لتوان فهتف ابراهيم

-"أشعر أن هناك أمر ما..."

-" هو كذلك يا ابراهيم..لقد عرضت القيادة الاسرائيلية على قيادة الجيش الثالث عرضا أخشي ألا يلقى استحسانا من جانبك.."

صمت لثوان مترقبا أثر كلامه علي وجه ابراهيم

-"لقد عرضوا علينا أن نسلم أنفسنا للجيش الإسرائيلي كأسري حرب و...."

محتدا قاطعه ابراهيم

-"يا له من سخاء و كرم..... نسلم أنفسنا أسري للجيش الإسرائيلي مقابل فك الحصار عنا.."

نطقها ابراهيم فى سخرية مريرة متوجها بها لقائده محمود شعيب و الذى هتف مفسرا

-" هذا ما عرضه الجيش الإسرائيلي على قيادة الجيش الثالث."

ارتكزا براهيم عبدالتواب بكلتا يديه على سطح المكتب الميدانى مواجها قائده

-" لقد تعاهدنا أنا و رجالى أننا لن نعود للخلف خطوة خطوناها للأمام...الموت أهون علينا من التفريط فى حبة واحدة من رمال سيناء."

-" هذا مقترح من الجانب الإسرائيلي و ليس أمرا من قيادتنا. أنت تعلم أننا ننفذ أوامر القيادة عن حب و اقتناع."

تنهد ابراهيم ثم نظر الى تلك القضبان الفولاذية المقوسة المواجهة له

-" من قديم الزمان و هم يحاولون النيل من أرض سيناء و لن يكفوا عن المحاولة و لكن هيهات. "

-" هذا ما كنت أود سماعه منك فالتفريط فى حبة رمل واحدة خيانة لدماء الشهداء.."

صمت لثون ثم زفر زفرة محملة بالأسي قائلا

- " كل ما في الأمر أن القيادة تشعر بالأسي و الشفقة لما نحن فيه من حصار و قلة امدادات،ألا ترى أن الرجال قد أشرفوا على الموت ظمئا و جوعا و قد تركوا لنا الخيار."

-" نحن ليس أمامنا سوي خيار واحد."

صمت لثوان و هو يضم قبضة يده اليمنى فى قوة أمام عينيه قائلا

-" التمسك بالنقطة حتى اخر طلقة و اخر رجل.."

***

-" التعيينات تتناقص و ليس لدينا أى مصدر من مصادر الامدادات."

نطقها على عرفة الضابط المسؤول عن التعيينات فى الكتيبة فهتف به ابراهيم

-" علينا أن نقتصد."

ذم على عرفة شفتيه مرددا

-" لقد فعلنا هذا بالفعل كما أمرت يا سيدى، فقد كنا نوزع تعيين الفرد على فردين.."

-" علينا أن نوزع تعيين الفرد لأربعة أفراد."

زفرة حارة شقت صدر ابراهيم فى طريقها الى الفضاء الخارجي ثم تابع

-" أعرف أن الأمر شاق و عسير ولكن علينا أن نحتمل ولا نفرط فى حبة واحدة من رمال سيناء."

-" قد نستطيع أن نتعايش مع نقص المؤونة و الطعام ولكن ماذا عن الماء؟"

هز ابراهيم كتفيه ثم رفع كفه مشيرا بسبابته الى السماء

-"دع الأمر لله.."

قالها ثم انطلق فى جولته للاطمئنان على الرجال. تأمل رجاله و هم يتقاسمون طعام الافطار بلا تذمر

-" يا لها من قسمة عادلة."

نظر ابراهيم عبد التواب الى مصدر تلك الجملة الممتزجة بضحكة صافية والتي خرجت من بين شفتي عصام هلال و هو يتقاسم طعام الافطار مع رفاقه فهتف به حمدى نجيب ضاحكا:

-" لقد قمت بعد حبات الفول فوجدت أن العلبة بها خمسة واربعين حبة ،لو قسمناها على أربعة سيصبح نصيب الفرد تسع حبات و ربع....."

ضحكة صافية خرجت من القلوب قبل أن تخرج الأفواه....ابتسم ابراهيم ثم استمر فى جولته التفقدية..

****

حول تلك المائدة الميدانية اجتمع الفريق الجمسي و قائد الجيش الثالث الميدانى و كوكبة من القادة لمناقشة الوضع فى كبريت

-"أريد ان أعرف حقيقة الوضع الميدانى لنقطة كبريت.

نطقها الجمسي مخاطبا العميد مسعد الششتاوى رئيس عمليات الجيش الثالث الميدانى و الذى أجاب

-" لقد فقدنا الاتصال بالنقطة تماما."

-" منذ متى تحديدا فقدنا الاتصال بالنقطة."

نطقها الجمسي مخاطبا العميد أحمد بدوى و الذى أجاب

-" لقد فقدنا الاتصال بالنقطة منذ نهاية اكتوبر بعد أن إكتشف العدو تلك الدوريات الراجلة و التى كانت بمثابة همزة الوصل بيننا و بين النقطة بعدها تمكنا من الاتصال ..و اليوم هو العشرون من نوفمبر."

ذم الجمسي شفتيه لثوان

-" هذه النقطة لها أهمية استراتيجية عالية لو تمكن اليهود من استردادها، سوف يتغير مسار الحرب كليا" .

أطرق لحظات ثم تابع متسائلا

-" هل من الممكن أن يكون جميع من فيها قد استشهدوا؟ "

طرح سؤاله مخاطبا قائد الجيش الثالث الميدانى والذى اجاب

-" تقارير الاستطلاع تؤكد أن العلم المصري ما زال يرفرف على النقطة و ان القوات الإسرائيلية ما زالت تحاصرها و هذا معناه أنهمم ما زالوا أحياء كما انى أثق فى بسالة الرجال و انه من المستحيل أن يستسلموا."

-"ماذا عن احتياطي الكتيبة من الماء و الطعام؟"

سنة من التجهم و الحزن ألمت بالعميد مسعد الششتاوى حينما استقر سؤال الجمسي فى أذنيه فهتف

-" للأسف الشديد احتياطي النقطة من الطعام و الشراب لا يكفى سوى ثلاثة أيام.. "

-" أيها السادة علينا أن نفعل المحال لنجدة هؤلاء الرجال فصمودهم سوف يكتب بماء الذهب على صفحات التاريخ."

قالها ثم شردت عيناه فى شيء من الذهول و هتف كمن يخاطب نفسه

-" سبعة عشر يوم بلا إمداد وبلا طعام أو شراب ، لو أنهم صمدوا امام هجمات العدو أخشي أنهم لن يصمدوا أمام هجمات الجوع و الظمأ."

سكت لثوان ثم واجه الجميع في اصرار

-" ايها السادة علينا ان نفعل المستحيل لفك الحصار عن النقطة. هل تسمعون علينا ان نفعل المستحيل."

****

هناك بعيدا عن القيادة وفى ميدان العزة و الشرف تأمل ابراهيم عبدالتواب رجاله الصامدين. آلمه كثيرا ذلك الاعياء الذى أحاط برجاله ذلك الهزال الذى نهش أجسادهم القوية نهشا ، و مع ذلك-فى وقت القتال-كانوا يثبون كالفهود المفترسة...لقد شربوا كل انواع المياه حتى تلك المياه المستعملة فى ريادتير المركبات...

-"عندى حل لمشكلة المياه يا سيدى."

نطقها الملازم محمد نور الدين فى شيء من الجدية فنظر اليه ابراهيم عبدالتواب بكثير من الاهتمام فتابع

-" كما تعلم فأنا خريج كلية العلوم و درسنا من قبل عملية تقطير المياه و..."

قاطعه ابراهيم عبدالتواب فى سعادة غامرة

-" يا إلهى كيف غابت هذه الفكره عن أذهاننا."

قالها ثم وضع كلتا يديه على كتفي نور الدين

-" هذا هو العقل المصري منذ قديم الأزل...فلنبدأ على بركة الله."

بكثير من الترقب و الأمل تابع الرجال يفعله نور الدين

-" أتظن أن هذه الفكرة ستنجح؟"

نطقها ابراهيم العجمى مخاطبا رفيقه الملازم سعيد كامل والذى خرجت كلماته معجونة بالأمل

-" أتمنى أن تنجح فلم يعد لدينا أى مياه فى النقطة..."

صمتا لحظات و هما يتأملان تلك الحلة الميدانية و قد اتصلت بها ماسورة معدنية طويلة - والتي حصلوا عليها من تلك المركبات المدمرة- فى الطرف الاخر حلة ميدانية فارغة فى انتظار قطرات المياه العذبة..

-"أريدك أن تقوم بوضع الخيش المبلل بالماء على تلك الماسورة يا سلامة بمعاونة بعض رجال السرية ."

نطقها الملازم محمد نور الدين مخاطبا سلامه ذلك المجند الأمي البسيط و الذى هرع الى القناة هو و ثلاث جنود

لإحضار المياه تمهيدا لغمر الخيش فى الماء و وضعه حول تلك الماسورة...مرت اللحظات على الرجال فى ترقب يشوبه الأمل و الرجاء ...

-" الان "

نطقها نور الدين و هو يفتح الحلة الميدانية التى استقبلت ثمار التجربة، تطلعت اليه العيون فى شيء من الترقب و الوجل

اغترف نور الدين غرفة من الماء و ما ان وضعها فى فيه حتى سعل فى حدة ثم اكفهر وجهه و بصقها فى سخط

- "محال...المياه ما زالت مالحه، تبادلوا النظرات فى شيء من اليأس"

- "كم من الماء المالح قد وضعت فى الحلة الميدانية يا سلامة ؟"

-"لقد ملأتها عن بكرة أبيها حتى تكفى كما كبيرا من الرجال."

تنهد نور الدين فى ارتياح

"مقدار الماء المالح فى الحلة الميدانية لا يجب أن يزيد عن النصف أو الثلثين حتى يتسنى لنا الحصول على الماء العذب و الان علينا اعادة التجربة."

من جديد أعاد نور الدين و رجاله الكره ليكون الحظ حليفهم هذه المرة، ومع نجاح التجربة انطلقت الحناجر بتكبيرات النصر و الظفر.

كوقع الصواعق وقعت تكبيرات الجنود على افئدة و أسماع الإسرائيليين المحاصرين لنقطة كبريت فهتف قائدهم فى دهشة لا تخلوا من الهلع:

-" ترى أى نصر قد أحرزه هؤلاء الشياطين."

بينه و بين نفسه يعلم أنه مهما حدث فلن يدرك البؤس قلوب هؤلاء المرابطين.. وهناك فى كبريت أضاءت الفرحة قلوب الرجال و وجوههم فهتف ابراهيم عبدالتواب فى فرحة غامرة

-"من هنا أيها الرجال لن نفرط فى حبة رمل واحدة من رمال النقطة ولن نخطو للخلف خطوة خطوناها للأمام.."

****

-"لقد اشتقت كثيرا الى أبي."

بكل ما فى الكون من حنين و اشتياق نطقتها منى ابنة البطل ابراهيم عبدالتواب فتمالكت الام نفسها و كتمت دموعها و احتضنت منى

-" و من منا لا يشتاق اليه يا حبيبتي."

جذبت سيرة الاب الغائب خالد و طارق كما يجذب الرحيق النحل فأقبلا بصوت واحد

-" متى سيعود أبي يا أمي..."

لم يفاجئها السؤال فقد سمعته من قبل كثيرا، نجحت فى طرد تلك العبرات التى كادت أن تغالبها و استجمعت شجاعتها

-" بإذن الله سوف يعود قريبا.."

بكل ما فى الكون من براءة الاطفال هتفت منى

-" لقد سمعت فى الراديو انه تم وقف اطلاق النار فلماذا لم يعد أبي حتى الان..."

يا له من عبء ثقيل فوق كاهل زوجات الابطال..لكم الله يا زوجات الابطال تذكرت تلك الكلمات التى لطالما سمعتها من زوجها البطل الغائب احتضنت أطفالها الثلاثة بكل فى الكون من حنان

- "حياة هؤلاء الابطال ليست ملكا لهم أو لذويهم فقد وهبوها لأوطانهم عن طيب خاطر."

ما ان نطقتها حتى غالبتها دمعتان حبيستان مقهورتان سالتا على وجنتيها فى سكون.

الفصل الرابع
(استشهاد)

-"يا الهى أي عبث هذا الذى يفعله هؤلاء؟"

نطقها قائد القوات الإسرائيلية فى حيرة و هو يشاهد عبر منظاره الميدانى ما يفعله مرابطو كبريت، فهناك كان الملازم محمد نور الدين يقوم بالإشراف على عملية تقطير و تحلية المياه المالحة. مط مساعدة شفتيه فى حيرة

- "انه مشهد غريب لم ندرسه فى المدارس العسكرية و لم يخبرنا به احد من قادتنا من قبل...أخشي أنهم....."

بتر عبارته بغتة فى هلع فانتقلت عدوى الهلع الى قائده فهتف فى حدة

-"ما الذى تخشاه...لقد أثرت رعبي."

تردد مساعده لثوان ثم غمغم بصوت خفيض

-" أخشي أنهم يعدون الماء لطهى الأسرى و....."

قاطعته ضحكة مباغتة أطلقها قائده قوية

-" يا لك من احمق هؤلاء يفضلون الموت جوعا على أكل الجيف من أمثالك."

استجمع مساعده شيئا من شجاعته

-" هل لدى سيادتكم تفسير واحد لما يفعله هؤلاء، لقد عرضنا اولا ان يسلموا انفسهم كأسرى حرب فرفضوا ثم عرضنا عليهم الانسحاب من النقطة سالمين على أن يتركوا أسلحتهم فرفضوا و بالأمس القريب عرضنا عليهم أن ينسحبوا من النقطة بكامل سلاحهم فرفضوا ترى ما الذى يدفعهم ان يتخلوا عن كل هذه العروض و يتحملوا كل هذا الحصار و الجوع و العطش؟"

نظر اليه قائده نظرة عميقة ثم سحب نفسا عميقا وهتف قائلا:

-" انها كرامة الاوطان،هؤلاء يحملون كرامة مصر فى قلوبهم و على أيديهم ولم و لن يفرطوا فيها ابدا."

قالها ثم وضع منظاره الميدانى على عينيه متابعا ما يدور هناك بين هؤلاء الابطال..

ضاقت عيناه ثم صمت مفكرا لثوان...

-"يا إلهى لقد أدركت ما يفعله هؤلاء المردة....يا لهم من أذكياء. "

تساءل مساعده فى دهشة

-" ترى هل توصلت الي حقيقة ما يفعله هؤلاء البؤساء؟"

فى شيء من التباهي و الافتخار رد قائده

-"و من غيري يستطيع أن يدرك مثل هذه الأمور.. انهم يقومون بتقطير مياه البحيرات المرة و تحليتها" .

-" حقا لقد تخرجوا من مدرسة الرجال و عرين الأبطال

انهم..... "

نارية هي تلك النظرة التى رماه بها قائده فتلعثم مرتبكا

-"أنت حقا قائد فطن محنك تمكنت من فهم ما يفعله هؤلاء البؤساء و...."

قاطعه قائده فى حده

-" لا أظن أننا سنقضى يومنا فى الاطراء و الحديث عن هؤلاء أحكموا عليهم الحصار امنعوهم من تقطير المياه و تحليتها.

ماذا تنتظرون؟ هيا أطلقوا النار بغزارة."

ما إن نطقها حتى تداعت له سائر الأسلحة بوابل وفير من الطلقات...

خلف السواتر قفز معظم الرجال إلا أن بعض الرجال ممن ذهبوا لإحضار الوقود نالتهم الطلقات فسقطوا شهداء على الرمال ...تأمل ابراهيم تلك الحلة الميدانية فى حنق ما زال هناك الكثير من الرجال عطشي و فى أمس الحاجة الى الماء

-"لقد انطفأت النار و ما زلنا فى حاجة الى المزيد من الوقود."

نطقها ابراهيم فى غضب هادر مشيرا الى تلك الادوات المستخدمة فى تحلية المياه فهتف عصام هلال فى جرأة

-" هل تسمح لى يا سيدى أن نذهب أنا و حمدى لنحضر بعض الخشب المستخدم فى قضبان القطار."

تأمله ابراهيم فى دهشة

-" ألا ترى زخات الرصاص المنهمرة من حولنا. "

-" أرجوك اسمح لنا يا حضرة القائد."

بحروف أقرب الى التوسل و الرجاء نطقها حمدى نجيب

-*قبل أن يحدث هذا علينا أولا أن نؤمن تحركاتكما."

نطقها ابراهيم عبدالتواب ثم تناول جهاز الاتصال مخاطبا رجال الخط الأمامي

-" اطلقوا النار بغزارة."

تزامنا مع اطلاق النار قفز عصام و حمدى فى خفة نحو قضبان القطار... رغم تحركهما السريع الا انهما لفتا انتباه قائد القوات الاسرائيلية

-" أطلقوا النار نحوهما بغزارة."

مع زخات الرصاص المنهمرة لم يجد حمدى و عصام بدا من القفز داخل احدى عربات القطار

طافت عيونهم فى أرجاء تلك العربة المهجورة علهما يجد ما يستحق الاهتمام أشار عصام نحو كومة من الرمال تتوسط أرضية عربة القطار

-"يا له من كنز ثمين!"

هتف رفيقه

-" عن كنز تتحدث؟"

ضاحكا مستبشرا هتف عصام

-"ألا تري هذا الكنز يا رجل."

قالها مشيرا الي حبات من الفاصوليا الجافة المختلطة بالرمال ثم تابع

- دعنا نجمع تلك الدرر الثمينة حتى يحين وقت الغداء و يتوقف هؤلاء عن اطلاق النار.

شرد حمدي ببصره لثوان ثم تابع

-"تخيل ان هناك من ينعم بالحياة بين جدران منزله و بين زوجته و اولاده و مع ذلك يشكو."

توقف عصام عن جمع حبات الفاصوليا متأملا ر فيقه قائلا

-"من لا يحتمل المشاق من اجل وطنه لا يستحق العيش فيه."

مع توقف صوت الرصاص غادرا العربة و شرعا فى اقتلاع بعض القطع الخشبية ....

-" لقد أحضرنا مع الوقود كنزا ثمينا."

نطقها عصام و هو يضع قطع الوقود بجوار موقد تحلية المياه

فهتف به ابراهيم متسائلا:

-"ماذا وجدتما يا ترى؟ هل وجدتما كنز حفرة الأموال في جزيرة البلوط؟* [15]"

-"بل وجدنا ما هو أثمن."

قالها حمدي مادا يده الى جيب سترته مخرجا حفنة من الفاصوليا البيضاء الجافة. تأمل ابراهيم تلك الحفنة ثم تبسم ضاحكا

**********"**********

[15] تعتبر حفرة المال من الألغاز المثيرة، والغامضة، التي أثارت – على مدى العديد من السنوات - حيرة العلماء وصائدي الكنوز، حيث لم ينجحوا في فك طلاسم هذه الحفرة المملوءة بالغموض والأساطير والمآسي.

فى تلك الليلة و على ضفاف البحيرات المرة و قف ابراهيم منصتا باهتمام لطبيب النقطة و الذى هتف قائلا:

-" ليس من الصواب أن نفعل هذا يا حضرة المقدم."

أثارت كلماته ابراهيم عبدالتواب فرد قائلا:

-" ماذا تقصد يا حضرة الطبيب؟"

رد عليه عبدالجواد مشيرا الى شاطئ القناة حيث سيد حرب و رفيقه ابراهيم العجمي و خمسة من الجنود - قائلا:

-"سيد حرب يعانى من نزلة برد حادة و ارتفاع فى درجة الحرارة و قيامه بهذه الدورية عبر المياه المالحة فى هذا الليل البارد سوف يعرض حياته للخطر الشديد."

اخترقت عينا ابراهيم حجب الظلام لتتأمل رأس الطبيب المعصوب، فرغم إصابته الشديدة رفض مغادرة النقطة و ها هو ذا الان يشعر بالخوف على أحد رفاقه..

هز ابراهيم عبدالتواب رأسه قائلا

-" حسنا فلنحاول أن نثنيه عن عزمه و نسند المأمورية الى غيره."

قالها ثم انطلق يتبعه الطبيب الى الشاطئ حيث قارب الزودياك و الرجال..

-"أرى أن تستريح هذه الليلة يا سيد فأنت تعانى بشدة."

انتفض سيد حرب كمن لدغه عقرب حينما سمع كلمات قائده فهتف قائلا

"سيدى أنا بخير أرجوك لا تحرمني من هذه المهمة."

تدخل الطبيب محاولا ان يثنيه عن عزمه

-" انت تعانى من نزلة برد شديدة و التهاب حاد فى الشعب الهوائية و ارتفاع فى درجة الحرارة و...."

من جديد هب سيد مقاطعا

-" وانت رغم اصابتك الجسيمة فى رأسك رفضت مغادرة النقطة و أصريت على التمسك بها أرجوك يا سيادة المقدم لا تحرمني من هذه المهمة."

أمام إصراره استسلم ابراهيم لطلبه....و انطلق لانش الزودياك يشق طريقه عبر المياه المالحة و الظلام...

بعد ساعات من مغادرة الزودياك بدأ القلق يتسلل الى نفس ابراهيم والذى تعلقت عيناه بصفحة المياه المالحة

-" لا تقلق سوف يعودوا الينا سالمين.*"

نطقها على عرفه و هو يلاحظ تعلق عيني قائده بصفحة المياه المالحة...على الرغم من ثقته التامة فى تلك التأمينات التى أعدتها قيادة الجيش و كذلك سرية التأمين المرابطة بكامل أسلحتها فى قلب البحيرات الا أن قلقا خفيا قد استبد به.. هو لا يراهم مجرد رفاق او زملاء حرب و انما يشعر أنهم أبنائه و أنهم سبب تلك الفرحة والعزة التى ملئت القلوب و الوجوه فى ربوع الوطن...

بين اللحظة و الاخرى كان يرفع منظار الرؤية الليلة محاولا فتق عتبات الظلمات بحثا عن ابنائه.

هناك و فى مستشفى القبة العسكري رقد سمير عبدالعزيز فاقدا الوعى- ممدا فى فراشه معصوب الرأس و قد اتصل جسده بالعديد من الاجهزة الطبية و الخراطيم عقب تلك الجراحة الخطيرة التي أجريت له....بعد فترة من الزمن بدأ يعود إليه وعيه فهتف متسائلا:

-"ترى من الذى أطفأ أنوار الحجرة؟"

تأمله ذويه بكثير من الشفقة و قبل أن يهم أحدهم بالرد رفع هشام ابو النصر يده ليمنعهم من الرد

-" لا تشغل بالك بالضوء يا حضرة المقاتل فالأنور مقطوعة عن المبنى منذ ساعات."

تأوه سمير فى ألم

-" أشعر بالأم مبرحة فى جمجمتي و جسدي،ما الذى حدث أين أنا؟"

تمالكت أمه نفسها و كتمت دموعها و هي تشاهده طريح الفراش. ما زال قلبها معلق بابنيها الاخرين. ذهب ثلاثتهم الي الميدان. عاد سمير و ما زالت لا تعرف الكثير عن أخويه. استجمعت شيئا من شجاعتها محاولة بث الطمأنينة الي وليدها

-" أنت بخير يا ولدى انها اصابة بسيطة وانت فى المستشفى و سوف تشفى بإذن الله."

حاول سمير ان يستجمع شيئا من ذاكرته المهلهلة و الممزقة و حاول ان ينسج شيئا من الذكريات من خلال كلمات أمه فبدا يردد كالطفل الصغير

- "إصابة. المستشفى..قذيفة الهاوزر....انها تلك اللعينة دانة الهاوزر.... أبو جاموس...و..."

قاطعه هشام محاولا تهدئته

- " اهدأ فما تفعله ضار للغاية و سوف يسبب لك مضاعفات خطيرة..."

قاطعه سمير فى لوعة

- "كبريت...الرجال محاصرون فى كبريت.اريد أن أعود..أريد أن أعود..ابراهيم عبدالتواب..ابرا.... "

قبل أن تتصاعد تلك الحالة الهستيرية التى انتابته تناول هشام حقنة قوية من المخدر غرسها فى وريده ثم هتف بكل ما فى الكون من شفقة:

-" دعنا ندعوا الله أن يظلوا صامدين فهم يحملون كرامة مصر على عواتقهم."

****

قسوة البرد و تلك الرياح القوية لم يمنعا ابراهيم من الوقوف علي شاطئ البحيرات منتظرا عودة الرجال. تأمل صفحة المياه

في هذا الوقت المتأخر من الليل و في الوقت الذي ينام فيه أناس تحت الأغطية الوثيرة ثم يستيقظوا صباحا ليملئوا الكون صخبا و ضجيجا عن حب الأوطان. مد بصره في الظلام باحثا عن رفاقه المخلصين. بطيئة مملة ثقيلة قل عنها ما شئت لحظات الانتظار. علي امتداد الأفق بدا و كأن هناك أشباحا تسبح عكس مياه التيار. من قبيل الحرص و الحذر أشار الي رجاله المرابطين ان يلزموا جانب الحذر و الاستعداد.

تنفس الصعداء و كأنما أزاح عبئا ثقيل جثم علي صدره حينما لمح تلك الاشارة التي أبداها الرجال.

-"مرحى مرحى لقد فعلتموها بنجاح كدأبي بكم أيها الرجال.."

نطقها ابراهيم عبدالتواب بكل ما فى الكون من سعادة و هو يستقبل رجاله العائدين من دورية الموت مع أضواء الصباح الاولى .

-" و قد جئتك بهدية ثمينة يا حضرة القائد."

نطقها سيد حرب فى شيء من الزهو المفتعل و هو يناول قائده علبة من الورق المقوى ما ان فتحها ابراهيم عبدالتواب حتى وجد فيها مذياع صغير الحجم، لم يهتم ابراهيم كثيرا بالمذياع و لكن ما أثار اهتمامه هو تلك الحالة الصحية التى أصبح فيها سيد حرب، ففي المساء كان يرتجف من الحمى و البرد و ها هو الان سليم معافى، و كأن سيد حرب قرأ ما فى رأس قائده فهتف ضاحكا

- "أظنك تريد أن تعرف ذلك الدواء الذى تعاطيته؟"

قبل أن يتكلم ابراهيم بكلمة واحدة تدخل الطبيب مستفسرا

-" لابد انه علاج مبتكر و جديد هيا أخبرني به."

مع شغف الطبيب و اهتمامه تبسم سيد

-"انه علاج فعال يا سادة.. انه العشق. عشق تراب هذا الوطن."

نزلت عليهم كلماته بردا و سلاما و لم ينبس أحدهم ببنت شفه و أخذوا يفرغون حمولة القارب فى صمت و رضا.

.....

امتزجت النسمات الباردة لصبح الرابع من يناير مع تكبيرات عيد الاضحى المبارك و تصاعدت أصوات الرجال فى كبريت من كل مكان

-" يا الهى ما الذي يفعله هؤلاء انهم يهللون و يكبرون كأنهم في رحلة و ليسوا محاصرين. "

نطقها احد الجنود الإسرائيليين مشيرا الى ابراهيم عبدالتواب و الرجال المتأهبين و قد بدت فرحة العيد عليهم.

-" أليس من المفروض أن نطلق عليهم النار فى هذا الوقت بالذات."

نطقها مساعد قائد قوات الحصار فنظر اليه رئيسه فى حنق

-" يخيل الى أنك لن تتعلم أبدا...لو أننا أطلقنا طلقة واحدة فسوف يحصدنا هؤلاء الجنود الاقباط حصدا بلا هوادة فما بينهم من رباط لا يفهمه أمثالك من السذج."

صمت لحظات و هو يتطلع الى ابراهيم عبدالتواب و معه رجاله غير عابئين بفوهات الموت المسددة نحوهم شيء ما لفت انتباهه بشده هو ذلك الاعياء الذي بدا عليهم بسبب قلة الزاد و المؤنة

-" الان علينا ان نقدم تحية العيد لهؤلاء الصالحين..."

نطقها قائد قوات الحصار الاسرائيلي تزامنا مع وقت تبديل الخدمة .....ثوان و انفجرت النقطة عيونا بالقذائف و الطلقات. أولئك المتعبون تحولوا الى فهود وثابة مفترسة أذهل مرئاهم جنود العدو..

-"اللعنة."

نطقها مساعد القائد و هو يشاهد تلك الهبة الدفاعية القوية و التى بدأ بها الاقباط دفاعا عن رفاقهم..

-"أرى أن نتوقف عن القتال قليلا ريثما يستريح الجنود و يحصلون على طعام الغذاء. "

نطقها قائد القوات الإسرائيلية أمرا جنوده بالتوقف عن القتال فتبسم مساعده

-" رجالنا بارعون جدا فى هذا الامر يا سيدى.."

و ما ان توقف صوت الرصاص حتى شرع الأشاوس فى تبادل التهاني و التحية.

-" كل أضحى و أنتم بخير يا حضرة المقدم."

نطقها جابر شعراوي ضابط الشئون الفنية بالكتيبة فتأمله ابراهيم في مزيج من العطف و المودة، لم يفزعه ذلك الهزال المرعب البادي على وجه جابر و لا ذلك الهبوط الحاد في الوزن، فهذا هو حال جميع الرجال و قبل ان يستمر ابراهيم في تأمله تنحنح جابر معتذرا

-" هناك سؤال كنت أود ان أسألك اياه يا حضرة القائد."

-"سل ما شئت يا جابر."

تبسم جابر حينما سمع ذلك من قائده

-"دائما تحدثنا عن بر الوالدين أترانا سنعود لنفعل شيئا كهذا؟"

ارتوت نفس جابر بالطمأنينة والرضا من جراء تلك الابتسامة الفياضة التي ألقاها ابراهيم عبدالتواب في قلبه و وجدانه و شعر بالثبات و اليقين حينما وضع ابراهيم يده على كتفه

-" كلي أمل في الله أننا منتصرون و أنكم عائدون لتملئوا اسماع الدنيا بحديث الصمود هنا في كبريت."

ما ان نطقها حتى تعانقا عناقا حارا ربت كل منهما على ظهر الاخر في حنين.

.....

-"نوفرى بيه بيك إيهو إميسي .* [16] "

نطقها ابراهيم عبدالتواب مداعبا و مهنئا العريف ذكى مختار بعيد الميلاد المجيد و الذى أدهشته تلك التحية التى لا يعرفها سوى الاقباط فابتسم مجيبا

-"واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها يا حضرة القائد .... نوفرى بيه بيك إيهو إميسي."

ابتسم ذكى ثم غمز بعينه مداعبا قائده فى محبة -؟

-"هذه تحية عيد الميلاد المجيد و لا يعرفها سوى بعض الاقباط المهتمين باللغة القبطية."

[16] هى جملة قبطية معناها عيد ميلاد مجيد

ضحكة صافية تلك التى أطلقها ابراهيم عبدالتواب و هو يناول نكى عددا من ثمار البرتقال لتوزيعه على الجنود الاقباط كترفيه لهم فى عيد الميلاد

-" صدقني انا لا اعرف من اللغة القبطية سوى هذه الكلمات ولكن دعني أقولها لك بكل لغات المحبة والود، كل عام و نحن إخوة و شركاء فى هذا الوطن."

بعينين مليئتين بالحب و التقدير نظر نكى الى قائده

-" كل ثانية و هذا الوطن بألف خير طالما فيه أمثالك يا حضرة القائد."

كادت الدموع أن تغالب العريف نكى تأثرا بنبل قائده الا انه شد قامته فى قوة مؤديا التحية العسكرية بإجلال و احترام ثم انصرف منفذا فى الحال.

.....

-"يا له من هدوء أشبه بهدوء المقابر و ظلمتها."

ترددت هذه العبارة فى نفس الملازم محمد نور الدين و هو يتأمل فى أرجاء النقطة، هدأت كل الأصوات حتى أصوات الطلقات و الدانات ،خبت كل الأنوار و تلاشت و اختفت. .طاف نور الدين بعينيه عله يلمح شيئا من ذلك الضوء و تلك الروح الجميلة التى كانت تطوف حولهم، غالبته دمعه حزينة لم ينجح فى كبح جماحها فتناول دفتره و أوراقه فى حزن و أسى ليكتب شيئا من أحداث ذلك الأمس الحزين:

" الرابع عشر من .يناير.. .أحداث يوم رهيب ،بل أسوأ ما مر فى هذه النقطة، يوم الشهادة، استشهد بطل الأبطال ،قوى الإيمان ،قائدنا ابراهيم عبدالتواب.....

و لكى نقف على تفاصيل الفاجعة علينا أن نعود للوراء قليلا...

انها ليلة الرابع عشر من يناير...ليس من الغريب أن يطوف ابراهيم عبدالتواب على الرجال فهذا دأبه و شغله الشاغل....

الغريب هو ذلك الشعور المر الذى ملأ الأفواه، ذلك الانقباض المؤلم الذى أطبق على قلوب الجميع..

-" لا تتخلوا عن عشق هذه الأرض و لا عن حب بعضكم البعض، تماسكوا...هذه هي و وصيتي لكم يا نور...عليك أن تذهب الى رفيقك مصباح و تصالحه"

أثارت هذه الكلمات شيئا من القلق فى نفس الملازم محمد نور الدين

-" أطال الله فى عمرك يا حضرة القائد و...."

قاطعه ابراهيم

-" أريدكم أن تكفنوني فى علم مصر، و أن تدفنوني بين رجالى و أن تسلموا مصحفي و مسبحتي لكريمتي منى."

فى صمت غادر ابراهيم عبدالتواب للاطمئنان على بقية الرجال تاركا الملازم محمد نور الدين فى لجة من الذهول و الحزن...

بشيء من الذهول تأمل سامى حجازى قرص الشمس الوليد فى داخله شعور متزايد بالاكتئاب و الغربة

-" ترى ما الذى يحمله لنا هذا اليوم الجديد.."

تردد هذا السؤال فى نفس سامى حجازى و هو يتأمل كمائن و قوات اليهود المحاصرة للنقطة..

-"كيف حالك أيها البطل العنيد؟"

التفت الى مصدر الصوت، انه المقدم ابراهيم عبدالتواب، يشرف بنفسه على توزيع الافطار بالعدل بين الجميع،....

تأمل قائده فى شيء من الدهشة، بدا له كعريس فى يوم زفافه...شاربه الكث...ملامحه التي ازدادت وسامة

ألم به شعور غريب حاول أن يعرف مصدره..

-" و كأنك تراني لأول مرة يا سامى.."

باغتت تلك الجملة سامى و انتزعته من أفكاره فأنتفض

-" هه..عذرا سيدى ماذا كنت تقول؟"

أطلق ابراهيم ضحكة صافية

-" يا إلهى ألهذا الحد كنت مشغولا..."

تنحنح سامى

-" عذرا سيدى فأنت اليوم تبدوا وجيها ، بهيا، وسيما و..."

قاطعته ضحكة وقورة من ابراهيم

-" أكنت تراني غير ذلك فيما مضى؟"

تلعثم سامى

-" بلى كنت أراك كذلك و لكنك اليوم تبدو أكثر بهاءا و جمالا و وجاهه."

وضع ابراهيم يده على كتف سامى و قد ازدادت ابتسامة عذوبة و سحرا ثم نظر فى عينيه

-" هكذا يجب أن يكون المرء فى يوم عرسه."

قالها ابراهيم عبدالتواب ثم غادر تاركا سامى خلفه فى لجة من الذهول و الأفكار.

تأمل سامى قوات العدو من جديد ثم تناول شيئا من افطاره الميدانى البسيط... انتابه شىء من الفتور، فى كل مره هو

من يبدأ بالقتال، الا فى هذه المرة.... تأمل قوات العدو و هو يرفع تلك اللقيمات البسيطة الى فمه...

-"لقد قام العدو بتحريك بعض مدرعاته باتجاه النقطة يا حضرة القائد"

نطقها الدسوقى مشيرا نحو الشرق

-" لو انهم اطلقوا طلقة واحدة فسوف نرد عليهم بعشر طلقات."

نطقها ابراهيم عبدالتواب ثم سار نحو الخطوط الامامية صوب الشرق فهتف به الدسوقى

-"الى اين يا حضرة القائد؟"

توقف ابراهيم مستديرا للخلف- و قد بدت على وجهه ابتسامة جميلة

-"سوف أتوجه نحو الشرق لادارة المعركة فى المقدمة..."

قالها ثم انطلق نحو الشرق صوب الخطوط الأمامية..

-"أرى أن نطلق النار يا سيدى."

نطقها الملازم سعيد أدم و عيناه معلقتان بتلك المدرعات الاسرائيلية والتي بدأت فى التحرك صوب النقطة.

-"الان."

نطقها ابراهيم عبدالتواب فى قوة و حسم مشيرا الى احدى المركبات الإسرائيلية و التى بدت هدفا سهلا فى مرمى نيران سعيد ادم والذى لم يتوانى لحظة واحدة فى تنفيذ أمر قائده

-"كم أنت رائع يا "ويلفريد ستوك [17]***"***

نطقها وهو يحشو فوهة مدفعه الهاون بالقذيفة ثم ضغط على الزناد...لحظات هي كل ما استغرقته تلك القذيفة فى مسارها ثم هبطت فوق احدى ناقلات الجند الإسرائيلية لتحولها الى قطعة من الحديد المشتعل ...و أمام أعين اليهود الذاهلة ارتفعت السنة النيران من الناقلة بصورة أفزعت الجميع...

-"أطلقوا كل الأسلحة."

ولفريد ستوك مخترع مدفع الهاون

نطقها قائد القوات الاسرائيلية بكل ما في الكون من حنق...و انطلقت كل الأسلحة من الجانبين...تحولت النقطة الى قطعة من الجحيم ...

-"أريدك أن تغطى انسحابي."

فاقت قوة الكلمات ضجيج جميع الاسلحة فهتف سعيد فى انزعاج

-"ليس من الصواب ان تتحرك فى الميدان فى هذه اللحظات."

رد عليه ابراهيم عبدالتواب فى اصرار

-"على ان اتوجه الى دشمة المدفعية لتوجيه النيران."

استمر سعيد فى دفاعه المستميت ثم هتف راجيا متوسلا

-" اخشى أن...."

قاطعه ابراهيم فى صرامة:

-" نفذ الامر يا سعيد..."

قالها ثم قفز خارج الدشمة كالفهد تلاحقه الطلقات من كل حدب و صوب....

تجمدت الدماء فى عروق جنود الخط الثاني و هم يشاهدون تلك الوثبات الجريئة المذهلة لقائدهم ابراهيم عبدالتواب..

-"يا له من بطل جرئ."

نطقها مساعد قائد قوات الحصار الاسرائيلية بصورة عفوية فأنفجر قائده فى وجهه

-" أراك شديد الاعجاب بالرجل هل احضر لك اوراقا و أقلاما لتكتب فيه قصيدة مدح يا سيد جرير[18]* ..."

تلعثم مساعده

-"عذرا سيدى فأنا....."

انفجر قائده فى وجهه

[18] جرير أشهر شعراء المدح قديما

-" لا وقت للتلعثم، عليك بتركيز نيران المدفعية حيث توجه ذلك العنيد..."

انفجار عنيف مدوي بالقرب من مركبته جعلها تهتز فى عنف فهتف فى شراسة

-" حسابك معي عسير يا عبدالتواب. "

قالها ثم تناول جهاز الاتصال موجها حديثه لقائد سرية المدفعية

-" أريدكم أن تدكوا النقطة فوق رؤوسهم."

لم يكد ينطقها حتى انهالت قذائف المدفعية فوق النقطة كالمطر...لحظات و توقف كل شيء فجاءة....

لحظات سكون أشبه بسكون المقابر أحاطت بكلا الفريقين...،كلا الطرفين توقفا عن اطلاق النيران فى وقت واحد و بلا أوامر من أحد ...

-"لا شك أن حادثا جللا قد وقع."

ترددت هذه العبارة فى نفس ابراهيم العجمي و هو يشاهد صمت الموقع الجنائزي...

وهناك عند دشمة المدفعية كانت الفاجعة المؤلمة... ابراهيم عبدالتواب مسجى على جانبه الايمن.....هرع محسن علام و شوقي الجوهري و سامى حجازى نحو القائد فى لهفة...لم تنزل من جسده الطاهر قطرة دماء واحدة، ابتسامة جميلة غطت ملامح وجهه....

-"أريدك أن تسلم هذا المصحف و تلك المسبحة و معهم هذا الخطاب لأولادي وزوجتي ..."

خرجت هذه الكلمات مفعمة بحشرجات الموت ورائحته فهتف محسن علام فى حزن جم

"أرجوك لا تتحدث كثيرا يا حضرة القائد حتى يحضر ال..."

قاطعة ابراهيم مصارعا سكرات الموت

-"لا حاجة بى للطبيب اوصيكم أن تكفنوني بذلك العلم الذى ادخرته تحت سريري و أن تدفنوني بين أحبائي....و إياكم أن

تفرطوا فى حبة رمل واحدة.. اياكم.. أشهد أن لا إله الا الله و ان محمدا رسول الله.."

قالها ثم فاضت روحه الطاهرة الي بارئها. علي وجهه المستدير كالبدر ارتسمت ابتسامة صافية رقراقه لطالما ارتسم مثيلها علي وجوه الشهداء. تأمله الرجال في حزن و ذهول.

كم هي قاسية و مؤلمة تلك اللحظات التي يرحل فيها الأبطال

..غصة مريرة قاسية تلك التي حلت فى حلوق الرجال و هم ينفذون وصية قائدهم...كفنوه بعلم مصر و دفنوه حيث أراد...

تعالى وقع تلك الاقدام والتي شقت طريقها فى عجلة الى حيث مقر قيادة الجيش الثالث الميداني و لم تفتر أو تهدأ الا بعد توقف صاحبها أمام القائد أحمد بدوى شخصيا ..كثير من الهم و الحزن سيطر على ذلك القادم الملهوف و الذى أدى التحية باحترام أمام قائده فهتف ذلك الاخير قائلا:

-"ملامح وجهك تشي بحادث أليم قد وقع. ..أليس كذلك؟"

أومأ المقدم فاروق محروس برأسه مؤيدا مناولا رئيسه برقية ورقية

-"لقد وصلتنا هذه الإشارة للتو يا سيدى."

تناول رئيسه تلك الورقة و ما إن طالعتها عيناه حتى اكفهر وجهه وتغيرت ملامحه ثم هب من فوق مكتبه صائحا فى فزع

-" يا الهى...متى حدث هذا؟"

-" العاشرة من صباح هذا اليوم الحزين."

هز القائد احمد بدوى رأسه فى أسي

-" يا لها من خسارة فادحة ابراهيم عبدالتواب قائد فذ قلما جاد الزمان بمثله."

ساد صمت حزين مكتب القائد لثوان ثم هتف بدوى

-" و ماذا عن بقية الرجال المحاصرين؟"

-" صامدون سائرون على درب رفيقهم و قائدهم لقد تمسكوا بالنقطة حتى اخر نفس."

هب بدوى من فوق مقعده من جديد قائلا:

-" صلنى بالنقطة حالا."

علي الفور وبلا نقاش هتف فاروق محروس:

-"حسنا يا سيدى."

قالها محروس ثم شرع فى الاتصال بالنقطة و ما ان تحقق الاتصال و أتاه صوت محدثه على الطرف الاخر قويا عنيدا

-" هنا نقطة كبريت معكم المقدم محمد سعد الدسوقى.."

حالة من الذهول اصابت فاروق محروس بسبب هذا الحديث المباشر، فالمحادثات العسكرية تكون مشفرة و لا يصرح فيها المتكلم باسمه و لا برتبته، تنحنح فاروق محروس

-"عذرا يا رقم..."

يد العميد احمد بدوى قاطعته فى صمت فقد امتدت الى جهاز الاتصال فى قوه ثم هتف قائلا فى تحد و اصرار

-"معكم العميد احمد بدوى ."

صعق فاروق محروس حينما سمع قائده يتحدث بهذه الطريقة المباشرة متخليا عن الشفرات و الرموز العسكرية و ازدادت دهشته حينما وصل الى سمعه صوت الدسوقى قائلا فى أدب جم اشتهر به رجال العسكرية المصرية

-"اسمعك بوضوح يا سيادة العميد واصل الاشارة."

-" أولا تعازينا القلبية الحارة لكل مصر و لكل رجال النقطة فى استشهاد المقدم البطل ابراهيم عبدالتواب، ثانيا صبرا و صمودا ايها الرجال فمصر كلها معكم و من ورائكم."

بكل ما فى الكون من حزم واصرار خرجت كلمات الدسوقى قوية ملتهبة

-" لا تقلق يا سيادة العميد فقد أقسم الرجال بالله و بحق تراب هذا الوطن و بحق دماء الشهداء لو أن اليهود أطلقوا طلقة واحدة فسوف نقاتلهم بأيدينا و بصدورنا العارية ."

رد عليه بدوى فى قوة

-" أعلم و أثق ان اليهود يسمعون هذه المحادثة و أحب أن أسمعهم...قسما بالله وبحق دماء الشهداء لو أنهم أطلقوا طلقة واحدة باتجاه كبريت فسوف يرون انتقام و غضبة جيش مصر."

أنهى الاتصال ثم تناول قلما خط به كلمات على ورقة بيضاء ناولها لفاروق محروس

-" أرسل هذه البرقية الى ابطالنا فى كبريت."

تناول فاروق البرقية ثم أدى التحية العسكرية و انصرف تاركا قائده و قد ارتسمت على وجهه كل معانى التحدي و الصمود.

–" سلام عليك أيها الشهيد البطل ابراهيم عبدالتواب. سلام عليكم ايها الابطال."

نطقها الدسوقى و هو يقف فى اجلال و خشوع عند مراقد الشهداء...ما زالت ترن فى أذنيه و فى آذان جميع الرجال كلمات الشهيد البطل ابراهيم عبدالتواب "لن نخطو للوراء خطوة خطوناها للأمام"

–"وصلتنا هذه البرقية من قيادة الجيش.."

أيقظته تلك الكلمات و حملته من عالم الذكريات و أعادته الى عالم الواقع...نظر الى جندى الإشارة

–"عذرا ماذا كنت تقول؟"

تنحنح الجندي

–"لقد وصلتنا هذه البرقية للتو من قيادة الجيش."

تناول الدسوقى البرقية وبدأ فى قرأتها:

"من هيئة عمليات القوات المسلحة الي المقاتل سعد الدسوقي قائد موقع كبريت شرق، جميع رجال القوات المسلحة تقدر فيكم روح البطولة والفداء، وتحيي روح

الشهيد عبدالتواب. املنا وثقتنا كبيرة في صمودكم وثباتكم تحيتنا لجميع رجالكم، والي الامام علي طريق النصر"

طوى البرقية بعد أن قرأها ثم ناولها للجندى

-" عليكم بتسجيلها فى سجلات الكتيبة . "

ما ان انصرف الجندي حتى عاود الدسوقى تأمله فى مرقد الشهداء، بعد لحظات أدى التحية العسكرية فى اجلال و مهابة ثم استدار فى صمت لمواصلة مهامه القتالية.

*****

بكل ما فى الكون من غبطة تأمل جابر شعروای مراقد الشهداء.... كم كان يتمنى هو و رفاقه أن ينالوا تلك المنزلة العالية، تعاهدوا منذ اللحظة الاولى على الصمود نصرا أو شهادة، ما زالت ترن فى أذنيه ضحكات الشهداء و أمام عينيه ما زالت حاضرة تلك الاماكن التي استشهدوا فيها...

هناك عند أعلى نقطة والى جوار العلم سقط عبدالرازق شامه شهيدا راضيا باسما...هنا سقط السيد وهدان،و فى هذه النقطة سقط مقلد..

"السقوط النفسي و انكسار المعنويات أول و أخطر مراحل الهزيمة فى كل الحروب، لذا علينا أن نكسر معنويات عدونا قبل أن يكسرنا "

ما زالت كلمات القائد ابراهيم عبدالتواب تتردد فى النفوس والقلوب كترنيمة عشق صادقة.

تلك اليد القوية التي حطت على كتف جابر أيقظته من جميل الذكريات فألتفت ليجد رفيقه فى الكفاح سامى حجازى و الذى نظر اليه بوجه يكسوه الحزن

-" لقد صدق فيهم قول الله عز و جل "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلا"

أومأ جابر شعراوي برأسه مردفا

-" صدق الله العظيم.

-"هناك مهمة جسيمة بانتظارك!"

اتسعت عينا جابر فى دهشة و قد أطل منهما التساؤل

-" مهمة جسيمة؟ ألم يتم وقف القتال و الفصل بين القوات بعد توقيع اتفاقية الكيلو ١٠١ فى الثامن عشر من يناير ١٩٧٤.*[19]"

هز سامى رأسه مؤمنا و موافقا

-" بلى يا صديقي هذا ما قد كان، ولكن اليهود قد تفاوضوا مع القيادات و طلبوا منا شيئا ما."

---

[19] **مفاوضات الكيلو 101**، هي محادثات ذات طابع عسكري جرت بين مصر وإسرائيل بإشراف الأمم المتحدة للوصول إلى تحديد خطوط وقف إطلاق النار في أعقاب حرب أكتوبر 1973 تنفيذا لقرار مجلس الأمن الدولي رقم 338 في هذا الصدد.

-"و ماذا طلبوا يا ترى؟"

" انت تعلم ان الصحافة العالمية سوف تحضر لتصوير الموقع، ولذلك فالإسرائيليون يريدون استرداد بعضا من مركباتهم الكثيرة والتي تركوها و هربوا اثناء القتال.."

-" و أين هي تلك المهمة الجسيمة التى على القيام بها."

-" لقد وقع عليك الاختيار لتتفاوض مع الإسرائيليين نظرا لخبرتك و درايتك بالشئون الفنية، و لذلك السيد قائد اللواء و السيد قائد الكتيبة بانتظارك."

قالها ثم انطلقا الى حيث ملجأ القيادة....

هناك فى ملجأ القيادة وخلف تلك المائدة الميدانية، كان بانتظارهما العقيد شعيب و المقدم الدسوقى و مجموعة من ضباط الكتيبة.

-" تفضلا بالجلوس. "

ما ان نطقها العقيد شعيب حتى جلسا فى صمت و احترام فهتف الدسوقى

-" هل اخبرك سامى بتلك المهمة؟"

-"نعم يا سيدى ولكنى كنت ان أعرف المزيد عن هذه المهمة."

-" انت تعلم أن أبطال النقطة قد دمروا حوالى ثلاثمائة مدرعة حول النقطة و بعد التفاوض فقد سمحت قيادة الجيش الثالث للقوات الاسرائيلية بسحب بعضا من مدرعاتها المدمرة حول النقطة حفاظا على ماء وجهها أمام شعبها و أمام الصحافة العالمية و قد طلبوا منا مندوبا ليتفاوضوا معه و قد وقع اختيارنا عليك. "

-" كنت أريد تعليمات و خطوط محددة حتى أحسن التصرف يا سيادة العقيد. "

نظر اليه الدسوقى موضحا

-" يحق لهم سحب تلك المدرعات التى تبعد مائة متر من النقطة.."

-" حضرة القائد هناك نقطة مهمة جدا يجب ان ننتبه لها."

كلمات سامى حجازى لفتت الانظار اليه فهتف شعيب

-" ماذا تقصد بهذه الكلمات يا سامى؟"

-" علينا أن نسعى جاهدين لكسر معنويات العدو تماما مثلما فعلنا بكرامته من قبل."

هز الدسوقى رأسه مستحسنا

-" أحسنت الرأي و القول يا سامى."

و كأن سامى لم يسمع ما قاله قائده فنظر الى جابر

-"حذار أن تبدى ضعفا أو وجعا فى حضرة خصمك.."

تأمله جابر و كأنه يرى ابراهيم عبدالتواب حيا يرزق..،لقد نمت و ترعرعت تلك البذور التي غرسها عبدالتواب فى هؤلاء الرجال.

وقبل أن يستطرد جابر فى تأمله واصل سامى الحديث

-"لذا يجب أن تبدو قويا أنيقا مرحا...."

بطريقته المرحة المعتادة قاطعه عصام هلال

-" أيضا يجب أن يكون معك علبة سجائر كليو باترا ."

تبسم الدسوقى إعجابا بالفكرة

-" و لما لا؟ لدي علبة سجائر فارغة نضع فيها عددا من السجائر و كذلك زجاجة مياه معدنية فارغة ، ليبدوا مفوضنا أكثر وجاهة."

-" رغم أنى لا أدخن و لكن لا مانع من علبة السجائر كى تكتمل الوجاهة. "

*****"*************************

مشاعر شتى تلك التى فاضت بها نفس سامى حجازى و هو يتأمل قرص الشمس الوليد، انه الثالث عشر من فبراير، حركة دؤوب فى أرجاء النقطة، الكل يجمع أشياؤه استعدادا للرحيل

فقد صدرت الأوامر بتسليم النقطة للجيش الثالث الميدانى و عودة اللواء الى مكانه بالعامرية، انتابته حالة من الذهول و الخدر، فى كل ثانية كان ينتظر الشهادة و يتمناها، ما زالت كلمات البطل ابراهيم عبدالتواب تنساب فى أذنيه،.... كلماته العذبة الرقرقة محفورة فى حنايا فؤاده، ابتسامته المطمئنة الجميلة وجهه الباسم، تلك الدروس التي كان يلقيها فى القلوب لا فى الأسماع.....

حينما تعتاد الأخطار تصبح الحياة العادية الآمنة شيئا مثيرا للملل و الضجر.

-"هل جمعت أغراضك و متاعك استعدادا للرحيل."

التفت الى للخلف حينما فاجأه صوت المقدم سعد الدسوقى..

-"تمام يا أفندم."

نطقها بشيء من الأسي.

وضع الدسوقى يده على كتف سامى مركزا ببصره على عينيه

-" أعرف أن لوعة فراق الابطال قاسية و لكن ما يثلج صدري و يخفف من همى هو أننا كنا سببا فى ضحكة مصر.... سببا فى سعادة المصريين.. هيا أيها البطل لملم أغراضك و استعد لتسليم الموقع لقوات الجيش الثالث الميداني."

غلبته الدموع فانسابت حامية غزيرة من عينيه ثم هتف من بين دموعه

- " اسمح لى أن أقف لحظات عند مراقد الشهداء لألقى عليهم نظرة الوداع."

لم يتمكن الدسوقى من كبح جماح دموعه فاحتضن رفيقه مربتا على ظهره

-" بعد ان تحضر قوات الجيش الثالث سوف نتوجه جميعا لمراقد الشهداء لوداعهم و الدعاء لهم."

احتضنه لحظات أجهشا فيها بالبكاء ثم غادر الدسوقى للمرور على بقية الرجال..

كل شيء يهون على النفس حينما يعلوا قدر الاوطان.

رابط متين ما بين الرجال فى جيش مصر معه تهون كل الصعاب..

غصة يتصاعد مرارها فى حلق سامى كلما تذكر انه سوف يفارق هؤلاء الرجال و تلك النقطة..

-"سوف يتم نقل الرجال بناقلات الجند الى محطة القطار وبعدها سيعود اللواء الى مكانه بمعسكر العامرية."

نطقها الدسوقى بعد أن حضرت قوات من الجيش الثالث لاستلام النقطة...

هتف حمدى نجيب

-"هناك أمر مهم علينا القيام به قبل المغادرة."

و ضع عصام هلال يده على كتفه

-" علينا أن نقرأ الفاتحة للشهداء و نلقى عليهم تحية الوداع."

فى صمت مهيب سار الرجال الى حيث مراقد الشهداء....دعواتهم الممتزجة بالعبرات... فى أذانهم مازالت

أصوات الشهداء و ضحكاتهم وفى قلوبهم حفرت صورهم و ابتسامتهم، بصورة تلقائية و بلا ترتيب مسبق أدى الرجال التحية العسكرية ثم توجهوا الى ناقلات الجند.

تعلقت عيونهم بكل تفاصيل الطريق ، بالتباب بالرمال، بالدشم، بتلك الجسور المقامة على صفحة القناة..

و هناك عند محطة القطار بالسويس كان بانتظارهم عرس شعبي حافل و اكاليل من الزهور، غمرهم شعور بالاطمئنان فقد رسموا الفرحة و البسمة على الوجوه

(و تعيشي تعيشي يا ضحكة مصر)

ترددت هذه الكلمات فى أذهانهم على متن القطار الحربي المتوجه الى العامرية.

هناك فى العامرية كان باستقبالهم عرسا اخر... اصطفت جميع الفئات فى استقبال الابطال.

-"يبدوا أننا لم نحظى بالشهادة فى الميدان و سوف سننالها هنا."

نطقها أسامة عبدالله و هو يشاهد تلك الحشود الفرحة بعودة الظافرين قد رفعت السيارة الجيب فى نشوة و ظفر

.....

يا لها من مهمة قاسية و مؤلمة أن تخبر شخص برحيل عزيز لديه، جلس محسن علام و سعد الدسوقى فى وجوم فى شقة الشهيد ابراهيم عبدالتواب و فى حضرة زوجته و كريمته منى....

الوجوم و الصمت أضافا ألوانا أكثر قتامة لتلك الصورة الحزينة.

-"سيدتي. تعجز كل كلمات الدنيا عن وصف حزننا و لوعتنا..."

-" هل تقصد أن أبى قد وقع فى الأسر؟"

بكل ما فى الكون من لهفة خرجت تلك الكلمات من بين ثنايا تلك اليتيمة، أطرق محسن علام برأسه

- "و لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أموتا بل أحياء عند ربهم يرزقون "

لم تستطع منى أن تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء، احتضنتها أمها فى حنان فهتف الدسوقى:

-" كلنا نشعر باللوعة و الأسي لفراقه و لكنه قضاء الله و قدره ."

لم يتمالك محسن نفسه فأنفجر باكيا و هتف من بين دموعه:

-" لك أن تفخري بأبيك يا صغيرتي فقد كان بطلا جاد بنفسه من أجل وطنه."

حاول الدسوقى ان يلطف من حدة الموقف فأخرج شيئا من متعلقات الشهيد

–" لقد أوصانا الشهيد رحمه الله عليه أن نسلمكم هذه الرسالة والمصحف و المسبحة."

كفكفت منى شيئا من دموعها ثم توجهت الى الدسوقى لتتناول تلك المتعلقات، تناولت الرسالة ثم بسطتها أمام عينيها الدامعتين لتقرأ ما فيها

"بسم الله الرحمن الرحيم

زوجتي الحبيبة

بنتي الحبيبة منى

قرتا عيني طارق و خالد

قد يصلكم خطابي هذا و انا بين يدى الله، أعلم مرار الفراق و وجيعة البعد ولكنها مشيئة الله...

أوصيكم ببعضكم خيرا و قبل هذا أوصيكم بمصر، دافعوا عنها مثلما دافعنا، افتدوها بالعزيز و بالنفيس،

و أخيرا أستودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه.

المحب لوطنه و لأسرته

ابراهيم عبدالتواب "

طوت الخطاب ثم قبلته بكل ما فى الكون من لوعة و اشتياق ثم هتفت من بين دموعها

-" رحمك الله يا أبى أعلم أنك ترتع فى جنان الخلد، و لكنها لوعة الفراق، عزائي أنى بنت الشهيد البطل الذى جاد بحياته لتحيا مصر."

نطقتها ثم انخرطت فى بكاء مرير.

تمت

بقلم /محمد على محمد حماد

دلجا فى الرابع عشر من ابريل ٢٠٢٠